مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع

للفنان: فان جوخ

بين الفن والأدب

ماهر البطوطى





إهـــــــــداء2006
ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

بين الفن والأدب

ماهر البطوطي

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة / سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تقديم

● منذ خمسة عشر عامًا أطلقت السيدة الفاضلة سوزان مبارك فكرتها الرائدة عن مشروع القراءة للجميع، هادفة إلى إتاحة فرصة القراءة لجميع أفراد الشعب، بعد أن كانت أسعار الكتب قد وصلت إلى أرقام كبيرة لا تحتملها ميزانية كل راغب فى القراءة والمعرفة.

● ولاشك أن أى مؤرخ للحركة الثقافية فى مصر سوف يتوقف كثيرًا عند فكرة هذا المشروع، وأثره الكبير على الثقافة والمثقفين فى مصر فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين.

● وقد أسهمت الهيئة المصرية العامة للكتاب فى هذا المشروع «بمكتبة الأسرة» التى تصدر بانتظام منذ أحد عشر عامًا، وتستعد لخطوة أخرى من التطوير فى عامها الثانى عشر.

● لقد قدمت هيئة الكتاب على مدى السنوات من ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٤م ومن خلال مكتبة الأسرة بسلاسلها المختلفة ٣١١٣ عنوانًا فى

مختلف فروع المعرفة، طَبعت منها أكثر من ٣٧ مليون نسخة وطرحتها فى الأسواق بأسعار زهيدة فى متناول الجميع، تبدأ من عشرة قروش وتتدرج، ولا تزيد عن ثلاثة أو أربعة جنيهات للكتب الكبيرة الحجم، أو متعددة الأجزاء.

- وهذه الأرقام تعطى دلالة لعدد المستفيدين من القرّاء، ولعل جزءًا كبيرًا منهم من القراء الجدد.

- ولكن المستفيد لم يكن القارئ وحده فقد عادت الفائدة أيضًا على مجموع الكُتّاب الذين أسهموا فى مكتبة الأسرة، وقد بلغ عددهم ١٣٦٨ كاتبًا كما عادت الفائدة أيضًا على المطابع، ودور النشر الأخرى التى شاركت فى المشروع. وبالتالى فالفائدة قد عمّت كل الأوساط الثقافية المهتمة بالكتاب.

- وقبل انطلاق مكتبة الأسرة لعام ٢٠٠٥م خلال الشهر القادم نعيد طرح حوالى مائة عنوان فى ثوب جديد، ويُعتبر ذلك تقدمة لانطلاقة أخرى لمكتبتنا.

- فإلى اللقاء مع مكتبة الأسرة ٢٠٠٥م الشهر القادم بإذن الله.

القاهرة — **ناصر الأنصارى**

مايو ٢٠٠٥

إهداء

إلى الأستاذ رجاء النقاش:
تحية تقدير وعرفان وود


فان جوخ



ڤان جوخ بريشته

تنتشر لوحات الفنان العالمي فنسنت فان جوخ فى جميع أنحاء العالم، ما بين المتاحف المشهورة والمجموعات الخاصة. ولكن حياة الفنان نفسه لم تخرج عن أوروبا، ما بين عدة بلاد هى هولندا وإنجلترا وفرنسا وبلجيكا، وهو وإن كان هولندى المولد، إلا أن إنتاجه الفنى ازدهر فى فرنسا، ومن يريد تتبع خطاه حيث عاش أخصب فترات حياته وحيث خطّت ريشته أفضل لوحاته فعليه شد الرحال إلى هناك.

ويبدأ السائر فى خطى فان جوخ جولته فى العاصمة الفرنسية ذاتها، باريس التى تردد عليها الفنان مرات كثيرة وعاش فيها فترتين طويلتين نوعا ما، ورسم فيها مجموعة من أبرز لوحاته، ضمها فيما بعد كتاب فنى مدروس بعنوان «فان جوخ فى باريس» صدر عام ١٩٨٨ احتفالا بمرور مائة عام على إقامته الثانية فى

العاصمة الفرنسية، وكانت إقامته الأولى هناك فى منتصف مايو ١٨٧٥ حين نقل للعمل بها في فرع مؤسسة «كوبيل وشركاه» للوحات والمطبوعات الفنية واستمرت حتى أبريل ١٨٧٦ ولكن زيارته الثانية هى التى تركت آثارها العميقة فى تشكيله الفنى، بعد أن كان قد قرر تكريس نفسه لفن الرسم، وقد فاجأ فنسنت أخاه ثيو بوصوله فجأة إلى باريس فى فبراير ١٨٨٦ ، وأقام الأخوان فى شقة فسيحة فى الطابق الثالث من المنزل رقم ٥٤ شارع «ليبيك» بمونمارتر، وهو الأثر الوحيد الباقى حتى الآن فى هذا الحى العتيق من بين المقاهى وصالات الرسم ومحلات الأدوات الفنية التى كان يرتادها الرسامون فى ذلك الوقت، ويمكن للزائر أن يرى على هذا المبنى اللوحة التذكارية التى وضعتها بلدية باريس وتبين إقامة فان جوخ فيه، حيث سكنه فى الفترة من فبراير ١٨٨٦ حتى فبراير ١٨٨٨ ، وللأسف لا يسمح سكان الشقة الحاليون لأحد بزيارتها أو بتصويرها من الداخل، كما أن اللوحة التذكارية قد، سرقت عدة مرات على يد هواة جمع التذكارات الفنية المتعلقة بالمشاهير.

ومعظم لوحات فان جوخ الموجودة فى باريس معروضة فى متحف دورساى، الذى أقامته الحكومة الفرنسية عام ١٩٨٦ على أنقاض محطة سكك حديدية وأودعت فيه - ضمن ما أودعت

لوحات الانطباعيين والمحدثين التى كانت موجودة فى متحف «جى دى بوم» الذى ضاقت مساحته عن استيعاب الزوار المتلهفين على رؤية روائع اللوحات الفنية التى طبقت شهرتها الآفاق ومن أهم لوحات فان جوخ الموجودة فى باريس: صورة الدكتور جاشيه، كنيسة أوفير ،غرفة الفنان فى آرل، ومن عجب أن معظم اللوحات التى رسمها فنسنت إبان إقامته فى باريس عن العاصمة كما كان يراها فى زمنه، مثل نهر السين ومطاعم باريس وطواحين مونمارتر ومقاهيه، هى كلها الآن إما فى متحفه الشامل بأمستردام، أو فى مجموعات خاصة.

والمدينة الفرنسية الثانية التى يحج إليها عشاق فان جوخ هى «آرل» التى تقع فى جنوب البلاد من بين مدن إقليم البروفانس الشهير وقد نزح فان جوخ إليها سعيا وراء الإلهام والشمس التى يستطيع أن يقوم فى ظلالها بدراساته للضوء وكان يحلم بإقامة مستعمرة للرسامين هناك حيث يعملون جنبا إلى جنب ويتبادلون الخبرات الفنية وقد وصل إلى آرل بالقطار فى ٢٠ فبراير ١٨٨٨، حيث خيبت آماله الأولى بالثلج الذى كان يغطى كل شىء، وبمشاكله مع صاحب الفندق الرخيص الذى كان يتشاجر معه بسبب اللوحات والألوان التى كان ينثرها فنسنت فى كل مكان، ولكن مقاله بالمدينة طاب حين تعرف على ساعى البريد

«جوزيف رولان» الذى ساعده على تأجير منزل صغير بسعر بخس أشتهر بعد ذلك باسم «المنزل الأصفر» بعد أن خلّده الفنان بلوحة بهذا العنوان وكان رولان هو صديقه الوحيد فى المدينة، فرسم له فان جوخ أربع لوحات مختلفة وتعود الفنان على العمل المستمر فى كل الأنحاء وطفق يرسم الحقول والفلاحين والأنهار والكبارى والميادين والمقاهى والناس ولما اشتدت وطأة الوحدة عليه أرسل إلى صديقه الرسام جوجان الذى وافاه فى آرل وأقام معه فى المنزل الأصفر وشرعا يرسمان معا، ولكن حدة طباع فان جوخ وبدائية جوجان جعلتهما فى شقاق مستمر، انتهى بالحادثة المشهورة التى قطع فيها فنسنت أذنه فى أول صورة من صور «جنونه» ودفع ما حدث سكان آرل. إلى كتابة التماس وقع عليه الكثيرون، يحتجون فيه على وجود ذلك «المجنون» فى وسطهم ويطلبون إبعاده عنها وانتهى الأمر إلى إلحاقه بمصحة «سان بول» ببلدة سان ريمى القريبة من آرل وكان الذى أوصى بذلك هو الطبيب الذى عالجه فى مستشفى آرل ويدعى الدكتور «فيلكس رى» والذى رسم له فان جوخ صورة امتنانا منه له، ولكن والدة الطبيب لم تعجبها اللوحة فاستخدمتها لسد ثغرة فى أحد أبواب منزلها! وهى موجودة الآن فى متحف بوشكين بموسكو.

وأمضى فان جوخ فى مصحة سان بول بسان ريمى الفترة من ٨ مايو ١٨٨٩ حتى ١٥ مايو ١٨٩٠ وقد قام فنسنت فى ذلك العام

برسم مجموعة من أشهر لوحاته وأهمها، منها أشجار السرو، وأزهار السوسن، والليلة المرصعة بالنجوم، ومناظر المصحة وبعض نزلائها، وقد رسم صورة لطبيبه المعالج الدكتور «ري» امتنانا له كذلك ترجع إلى هذه الفترة لوحة «فترة الراحة للمسجونين» التى نقلها عن لوحة لجوستاف دوريه والتى ذكر أستاذنا الكبير نجيب محفوظ أنها من بين اللوحات التى تركت فى نفسه أثرا بالغا.

وزائر آرل يمكنه الاشتراك فى رحلة على الأقدام ينظمها مركز الاستعلامات بالمدينة لزيارة الأماكن الهامة المرتبطة بفان جوخ، بصحبة أحد الشُراح، وتبدأ من متنزه آرل الذى يتوسطه تمثال للفنان، أما المنزل الأصفر فإنه غير قائم الآن، إذ أن الغارات الألمانية على المدينة إبان الحرب العالمية الثانية قد دمرته تماما، وإن كان بإمكان الزوار أن يروا مكانه فى ميدان لامارتين، والآثار التى مازالت باقية كما هى من أيام إقامة الفنان هناك، وهناك أيضا جولة مصحوبة بمرشد فى سان ريمى يتوجه فيها الزائر إلى مصحة سان بول التى لاتزال قائمة، ويرى الطبيعة المحيطة بها التى أوحت لفان جوخ أعماله، وكلها على ما كانت عليه أيامه، ومنها أشجار الزيتون، وأشجار السرو التى كان الفنان يشبّهها فى رسائله لأخيه بالمسلات الفرعونية.

ومن عجب أن آرل المدينة التى شهدت أفراح فان جوخ وأتراحه، و التى تنكرت للفنان فى محنته وهاجمه سكانها أبشع هجوم، حتى أنهم كتبوا التماسا جمعوا له التوقيعات بطلب ترحيله عنها خوفا من تصرفاته، هى نفسها المدينة التى تعيش اليوم اقتصاديا على اسم فان جوخ فالسياح يقصدونها من كل مكان، والمحلات تبيع تذكاراته من كل شكل ولون، ونسخ لوحاته متوافرة فى كل الأحجام، ورغم ذلك، لايوجد فى آرل ولا فى سان ريمى أى لوحة أصلية من لوحات فان جوخ، وإنما هى خطاه وروحه ووجوده يلمسها الزائر فى كل الأنحاء.

وبعد خروج الفنان من المصحة، يتوجه إلى منزل أخيه ثيو بباريس لرؤية زوجة أخيه وطفلهما الذى سمياه على اسم الفنان: فنسنت، ثم يشد الرحال إلى بلدة الى الجنوب من باريس هى «أوفير سير واز» كانت قد جذبت عديدا من الرسامين من قبل منهم سيزان وبيسارو، حيث اعتزم البقاء هناك تحت رعاية طبيب يدعى جيشيه كان فنانا وراعيا للفنانين.

وأوفير مليئة بالآثار المرتبطة بفان جوخ، ولذلك فزيارتها ضرورية للساعين فى خطى الفنان ولكن يجب على الزائر أن يعرف أن المبيت فى أوفير شبه مستحيل، إذ ليس بها أية فنادق، فعليه المبيت والأمر كذلك إن أراد فى مدينة «بونتواز» على مبعدة

ربع الساعة بالسيارة من أوفير وأهم الآثار في البلدة هو مقهى فان جوخ الذى يعلوه البيت الصغير الذى توفى الفنان فيه بعد أن أطلق الرصاص على نفسه في حقل مجاور بينما كان يرسم هناك والبيت الآن متحف يؤمه الزوار ويشاهدون فيه غرفة فان جوخ التى اكتراها بعد وصوله إلى أوفير، وملحق به صالة مبيعات لكل التذكارات التى يمكن تخيلها عن الفنان ولوحاته، أما المقهى فيتحول في ساعات الطعام إلى مطعم فاخر يقدم وجبات غالية الثمن، وفي مواجهة المقهى، يوجد مبنى البلدية التى رسمها فان جوخ في لوحة شهيرة ووراء المقهى هناك سلم حجرى نصعد عليه ونسير بعده في طريق تحفه الفيلات الخاصة، ومنها منزل الدكتور جاشيه، وينتهى بنا الطريق إلى كنيسة أوفير التى خلدها الفنان في واحدة من أشهر لوحاته، ويمكن أن نرى بوضوح الطابع التأثرى في الرسام من مقارنة الكنيسة في الواقع وقد استحالت في اللوحة إلى انطباع شامل يعكس رؤية الفنان لها وليس كما هى في الواقع وفيها وراء الكنيسة، هناك طريق طويل يشق حقول القمح المترامية الأطراف التى طالما رسمها فان جوخ، مما يعيد إلى أذهاننا على الفور لوحته الأخيرة «غربان فوق حقل قمح» وتجيء هذه الذكرى نذيرا بالنهاية الأليمة التى لاقاها الفنان في أوفير إذ يقودنا الطريق إلى مقبرة البلدة حيث دفن فان جوخ في ٣٠ يوليو

١٨٩٠ وهو يرقد هناك إلى جوار أخيه ثيو الذى مات بعده بستة شهور فى هولندا، ولكن زوجته التى تعلم مدى حب الأخوين نقلت رفاته إلى أوفير ليرقد إلى جوار أخيه ولا ينقطع الزوار يوما عن زيارتهما وإلقاء الزهور على قبريهما، تلك الزهور التى هام بها فنسنت ورسمها فى كثير من لوحاته، وقد قمت أنا وزوجتى بعد أن طفنا بأماكن فان جوخ الفرنسية، بوضع زهرتين على مثواه هو وأخيه تذكاراً لزيارتنا وتقديرا لهذا الرسام الذى أمتعتنا لوحاته وما تزال تمتعنا فى كل حين.

لوركا بين غرناطة ونيويورك

تحل هذه السنة الذكرى المئوية لمولد الشاعر الإسبانى غرسيه لوركا، وهى مناسبة مواتية للتعرف على حياة الشاعر وأعماله، والأماكن التى عاش فيها وارتبطت باسمه، وحين ننظر إلى العالم الذى عاش فيه لوركا نجد أنه يتوزع ما بين بلده إسبانيا ـ وخاصة غرناطة ونيويورك التى قضى فيها ما يقرب من عام فتركت فى نفسه وعمله آثارا لا تمحى.

وقد ولد لوركا فى قرية «فوينتى فاكيروس» من أعمال غرناطة إحدى محافظات مقاطعة الأندلس الإسبانية، وكان مولده فى ٥ يونيو ١٨٩٨، فى منزل عائلته هناك: ٦ شارع ترينيداد، وهو منزل أندلسى أصيل، بساحته المميزة التى انتقلت إلى العمارة الأندلسية منذ أيام العرب، وبأزهار الياسمين التى تتبدى على جدرانه وقد شهد هذا المنزل السنوات الخمس الأولى من طفولة

لوركا، وطبع فى نفسه جو القرية بما فيها من جمال الطبيعة وبساطة الحياة القروية وقصص الأطفال التى وعاها فى ذاكرته، ولا غرو أنه بعد أن تم رفع الحظر عن الشاعر وفكّر المسئولون فى إقامة متحف له، لم يجدوا لهذا الغرض أفضل من هذا البيت الذى شهد مولده، ومن ثم فقد افتتح المتحف عام ١٩٨٦ وتم تأثيثه - بقدر الإمكان - على النحو الذى كان عليه إبان إقامة الأسرة فيه، ويضم متعلقات الشاعر بما فيه مهده وصوره ومخطوطاته ونسخ من كتبه وما كُتب عنه، ولهذا فإن زيارة المتحف هو أول شىء فى الرحلات التى تنظمها شركات السياحة للمهتمين بلوركا وفنه. ومن المهم أيضا أن نعلم أن اسم الشارع الذى يقع فيه المتحف قد تغير ليصبح شارع الشاعر غرسيه لوركا.

كان والد الشاعر فديريكو رودريجيز، من كبار المزارعين وأصحاب الأراضى فى المنطقة ووالدته، فسنته لوركا، كانت تعمل مدرسة بالقرية قبل زواجها، وأنجبا ولدين: فديريكو وفرانسسكو، وبنتين: كونشا وإيزابل، وقد انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى قرية مجاورة هى بلدروبيو - أو بلد الربى حيث كان الأب يمتلك ضيعة هناك، وقد شهدت تلك القرية مسارح الصبا المبكر للشاعر، وتعرّف فيها على كثير من القصص التى حدثت لأسر فى القرية والتى ألهمته بعد ذلك حبكة مسرحيتيه الشهيرتين «يرما» «وبيت برناردا

ألبا، كما استلهم أحداث الزفاف الدامى من واقعة أخرى حقيقية فى إحدى القرى المجاورة.

ثم تنتقل زيارة لوركا الأندلسية إلى مدينة غرناطة مع انتقال الأسرة إليها عام ١٩٠٨ بحثا عن المدارس المناسبة لتعليم الأولاد والبنات. ويلتحق فديريكو بمدرسة القلب المقدس التى يبقى فيها حتى حصوله على البكالوريا واستأجرت الأسرة شقة مناسبة فى وسط المدينة، ولكن الأب يبتاع ضيعة صغيرة خارج غرناطة لتمضية فصل الصيف والأجازات هناك، وأسماها «بستان سان فنسنت» ووجد لوركا فى غرناطة متنفسا أكبر لحياته الشعورية والفنية إذ التقى فيها وجها لوجه بآثار الحضارة العربية والإسلامية الباهرة، متمثلة فى قصر الحمراء بكل أبهته وروعته، ورياض «جنة العريف» الملحقة به، مما أشعل خيال الشاعر وجعله يقارن بين تلك العظمة الحضارية لـ «مملكة غرناطة» وبين واقع المدينة والأندلس عامة الذى كان متدهور فى ذلك الحين بالنسبة إلى بقية المقاطعات الإسبانية كذلك احتك الشاعر الصبى بعالم الغجر السحرى الذى يتمثل فى حى، «ساكر امنتو» الذى يضم كهوف الغجر، وكثيرا ما كان يذهب إلى هناك مع أصدقائه للتعرف على حياتهم وأغانيهم وأقاصيصهم، التى انعكست بعد ذلك فى كثير من قصائده، لاسيما ديوانيه «حكايا الغجر» «والغناء العميق» كذلك

حملته قدماه إلى التجول فى حى «البيازين» العربى الأصل الذى احتفظ باسمه منذ أيام بنى الأحمر والذى لايزال يطالع زائريه إلى اليوم بلافتات تقول بالعربية: «الحى العربى يرحب بكم».

ويبقى لوركا فى غرناطة حتى عام ١٩١٩ وقد حفلت تلك الفترة بنشاطه الفنى والأدبى المبكر، حيث كان دائم التردد على المركز الفنى فى غرناطة، كما كانت له ندوته الثقافية فى ركن من أركان مقهى «ألاميدا» هناك وإلى تلك الفترة ترجع صداقته للموسيقار الإسبانى العالمى مانويل دى فايا وللأستاذ الجامعى فرناندودى لوس ريوس الذى سيمد له يد العون دائما بعد ذلك، وبالإضافة إلى بدء العديد من قصائده المشهورة، شهدت تلك الفترة صدور كتابه الأول بعنوان «انطباعات وصور» وبعد أن حصل على البكالوريا عام ١٩١٥ التحق بكلية الحقوق جامعة غرناطة استجابة لرغبة والده، ولكنه درس أيضا فى كلية الآداب التى كان يهفو إليها. ومن الغريب أنه تخرج فى كلية الحقوق وإن يكن بعد سنوات كثيرة ولم يعمل بشهادتها قط - وكأنه لم يتخرج أبدا من كلية الآداب.

وتضم الرحلة السياحية المنظمة التعرف على كل هذه المغانى الغرناطية المرتبطة باسم لوركا، وزيارة بستان سان فنسنت الذى تم تزويده هو الآخر ببعض متعلقات الشاعر. وقد حولت بلدية

غرناطة المكان إلى مزار سياحى يسمى «متنزه غرسيه لوركا» وشرعت فى إقامة ما سيصبح أكبر حديقة ورود فى أوروبا فى تلك البقعة.

وفى عام ١٩١٩ يشعر لوركا أن جو غرناطة يضيق عن تحقيق آماله وطموحاته الفنية، فينجح فى إقناع والديه بالسماح له بالانتقال إلى العاصمة مدريد، على وعد بالحضور إلى غرناطة كلما استطاع ذلك، لاسيما طوال أشهر الصيف، وهو وعد وفًى به لوركا على الدوام، حتى زيارة صيف ١٩٣٦ التى كلفته حياته ذاتها.

وفى مدريد، تتفتح أزهار لوركا الفنية على أجمل وجه، ويبلغ فيها ما كان يحلم به من شهرة ومجد، وأقام الشاعر عشر سنوات فى المدينة الجامعية بمدريد، وكانت مركزا ثقافيا هاما يجتمع فيه صفوة الأدباء والفنانين، حتى أنها أصبحت تعرف باسم «أكسفورد الإسبانية» حيث تعرف هناك عليهم وارتبط مع بعضهم بصداقات وطيدة مثل سلفادور دالى ولويس بونيويل ورافاييل ألبرتى وغيرهم ويتردد لوركا على متاحف المدينة المشهورة وعلى رأسها البرادو صنو اللوفر الفرنسى فى العراقة، وعلى مركز مدريد الثقافى الأتينيو حيث يلتقى بكبار مفكرى وأدباء عصره ومنهم: أونامونو، أورتيجا إى جاسيت، مننديث بيدال، أنطونيو

ماتشادو، خوان رامون خيمينيث كما تشهده عضوا اللقاءات الأدبية التى تعقد فى مقاهى العاصمة البارزة، ومنها مقهى «خيخون» الذى لايزال قائما حتى الآن فى قلب مدريد، الذى رأينا فيه حقبة أوائل السبعينيات تلك اللقاءات الأدبية التى كان نجمها آنذاك كاميلو خوسيه ثيلا الذى حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩.

وقد قضى لوركا زهاء عشر سنوات فى المدينة الجامعية، ثم انتقل إلى شقة واسعة فى شارع «القلعة» الرئيسى فى مدريد وتوالى إنتاج لوركا الأدبى والفنى منذ عام ١٩٢٠ من مسرحيات ودواوين شعر ومعارض رسم فعرض له مسرح إنسلافا «سحر الفراشة اللعين» التى لم تنجح لغرابتها على الجمهور الإسبانى آنذاك، ثم صدر له ديوانا «كتاب أشعار» «وحكايا الغجر» فلقيا نجاحا كبير خاصة الديوان الغجرى الذى ذاعت قصائده على كل لسان وترجمت إلى لغات عديدة.

وفى عام ١٩٢٩ يمر الشاعر بأزمة نفسية طاحنة، لا يجد مخرجا منها إلا فى قبول منحة للسفر إلى نيويورك لدراسة اللغة الإنجليزية لمدة سنة، وتمثل نيويورك لمحبى لوركا العالم الثانى الذى يتلمسون فيه آثاره وخطاه، بما تمثله من نقيض تام للعالم الأندلسى الذى عاش فيه قبل ذلك. ويقيم لوركا فى قاعة «جون جاى» بجامعة كولومبيا بنيويورك، وبدلا من حضور الدروس

بانتظام والتوفر على دراسة اللغة، نجده يمضى جل وقته مع المثقفين والأدباء الإسبان المقيمين فى نيويورك مثل «داماسو ألونصو» و«آنخل دل ريو» والشاعر «ليون فيليب» الذى قرأ معه أشعار والت ويتمان وتأثر بها. ونراه يطوف مع رفاقه فى أرجاء المدينة الهائلة التى أحدثت فى نفسه صدمة كبيرة نظرا لسيطرة المادة والمال على كل مناحى الحياة فيها وقد تبدى أثر الزيارة الأمريكية فى قصائد ديوان «شاعر فى نيويورك» الذى لم ينشر إلا بعد وفاة الشاعر. ونرى فى هذه القصائد وصورا شعرية بالغة الغرابة. وهى تعبير عن عجز الشاعر عن فهم تلك الحضارة المختلفة تماما عن حياته فى إسبانيا. وقد ظهر فى قصائد الديوان الكثير من معالم نيويورك التى تركت فى نفس لوركا أكبر الأثر: ناطحات السحاب المتطاولة، خاصة مبنى «كرايزلر» وملاهى وشاطئ «كونى أيلاند» وحى المال فى وول ستريت، ونهر الهدسون، وجسر بروكلين. بيد أن حى الزنوج أن حى الزنوج فى هارلم كان هو الواحة التى استراح اليها فى تلك الفترة، فقد شعر تجاه الزنوج المطحونين بنفس الود والقرب الذى شعر بهما تجاه الغجر وتجاه الناس البسطاء فى حى البيازين فى موطنه، وكتب عنهم بعض قصائد الديوان وأشهرها «أنشودة إلى ملك هارلم».

وبعد زيارة إلى كوبا، يعود لوركا إلى إسبانيا وقد تجدد نشاطه وعادت إليه حيويته وتتوالى الأحداث السياسية فى بلاده، فيتنازل الملك عن العرش وتعلن الجمهورية فى ١٤ أبريل ١٩٣١. وينفذ لوركا مشروعه بإقامة المسرح الشعبى المتنقل «لاباراكا» ليطوف به فى القرى والنجوع مقلدا التراث الإسبانى لجموع الشعب. وهو يوالى فى الوقت نفسه نشر قصائده الجديدة فى كبريات المجلات الأدبية فى إسبانيا وأمريكا اللآتينية، وينشر ديوان «الغناء العميق» الذى وضعه من قبل و «مرثية مصارع الثيران» الشهيرة ويعمل فى قصائد ديوان «شاعر فى نيويورك» وديوان «التماريت» اللذين يصدران بعد موته كما تشهد هذه السنوات تركيز لوركا جهده فى تأليف الأعمال المسرحية، ومنها مسرحيات «الإسكافية العجيبة» و «إذن فلتمر خمس سنوات» «والآنسة روزيتا العانس» ولكن قمة النضج الدرامى والغنائى المسرحى عنده تتمثل فى الثلاثية الأندلسية التى تشتمل على مسرحيات «الزفاف الدامى» «ويرما» و«بيت برناردا ألبا».

وتتفجر الأزمة السياسية بين اليمين واليسار فى إسبانيا إلى حد يفضى إلى وقوع تمرد ١٨ يوليو ١٩٣٦ الذى قام به العسكريون الملكيون، مما أدى إلى اندلاع الحرب الأهلية الشرسة التى عصفت بالبلاد ثلاثة أعوام طوال. وكان لوركا قد توجه كعادته إلى بستان

سان فنسنت بغرناطة لقضاء الصيف مع أسرته. ولكن فى ظهيرة يوم ٢٠ يوليو، تستولى العناصر الموالية للملكيين على غرناطة وتسيطر على الموقف فيها، وتقوم من فورها بتصفية العناصر المناوئة وعلى رأسها عمدة المدينة وهو زوج أخت لوركا. وفى ظل هذه الظروف، ترى الأسرة أن يقيم لوركا لدى صديقه الشاعر لويس روسالس الذى كانت أسرته من قادة الفالانخ الملكيين، ولكن يد الغدر والحقد تطال الشاعر حتى فى مأمنه، فُيلقى القبض عليه فى ١٦ أغسطس ويساق بعدها إلى قرية فيزنار ليعدم ليلة ١٩ أغسطس ١٩٣٦ فى منطقة تحمل اسما عربيا هو «عين الدمعة» ليسقط ضحية الفوضى التى سادت فى تلك الأيام العصيبة وللإشاعات التى ربطت بينه وبين إتجاهات سياسية لم يكن له فيها ناقة ولا جمل.

وتمضى الزيارة الغرناطية إلى نهايتها فى تلك المنطقة التى أعادت البلدية تخطيطها وزرعتها بالأشجار المحببة إلى لوركا: أشجار الحور وأشجار الزيتون، فتحولت إلى بستان ضخم، ووضعت هناك لوحة تذكارية باسم لوركا، وهكذا فى نهاية الأمر، يرد التاريخ الاعتبار للشاعر الإسبانى العظيم.

بيير لوتي

صديق مصطفى كامل

من بين كل متاحف كبار الأدباء والفنانين، ليس هناك ما هو أكثر غرابة وتنوعا من بيت بيير لوتى الذى أصبح متحفا يجذب الكثير من الزائرين من الفرنسيين وغير الفرنسيين منذ افتتاحه فى عام ١٩٦٩، ولا شك أن هذه الشهرة مرجعها إلى كتابات لوتى العديدة حول البلدان التى زارها وأغرم بها، وكلها فى الشرق، سواء ما يطلق عليه الأدنى، أو الأقصى، والمتحف المنزل يقع فى مدينة «روشفور» فى أقصى غرب فرنسا على المحيط الأطلسى. وقد ولد فيها الكاتب فى ١٤ يناير عام ١٨٥٠، فى شارع فليريس، الذى تغير اسمه بعد ذلك فأصبح شارع بيير لوتى، والاسم الذى اشتهر به الكاتب ليس هو اسمه الحقيقى، فهو يدعى جوليان فيو، ولكنه اتخذ اسم بيير لوتى فى عام ١٨٨١ مع ثالث رواية ينشرها ولوتى هو الاسم الذى كان أهالى تاهيتى يطلقونه عليه عند إقامته هناك.

وقد قرر لوتى منذ صباه أن يقتفى أثر أخيه الأكبر جوستاف بالالتحاق بسلك البحرية الفرنسية، ورغم أن أخاه قد توفى بحمى أصابته عام ١٨٦٥ وسط المحيط الهندى، فإن ذلك لم يثن لوتى عن عزمه، فهو قد أغرم منذ صغره بأخبار البلاد القصية وبالترحال لمشاهدة ودراسة تلك البلدان وعادات أهلها وطريقة معيشتهم. وقد حمله عمله فى البحرية إلى الاشتراك فى بعض العمليات الحربية فى الحرب الفرنسية الألمانية عام ١٨٧٠.

وقد بدأ لوتى نشاطه الأدبى فى عام ١٨٧٢ بنشر أولى مقالاته عن زيارته لجزر «أيستر» وقد قام بعد ذلك بزيارات عدة إلى تاهيتى والسنغال والجزائر، وكان دائما يئوب بعد كل رحلة إلى روشفور حيث يستقر مدة فى بيت الأسرة هناك، ثم تقع واحدة من أهم رحلاته، حين ينتقل مع سفينته إلى ميناء سالونيك فى البلقان التابع آنذاك للإمبراطورية العثمانية، ويمكث فيها ثم فى الأستانة طوال الفترة من أغسطس ١٨٧٦ حتى مارس ١٨٧٧. وفى سالونيك يقع فى غرام سيدة تركية فائقة الجمال تدعى آزيادى، التى الهمته أولى رواياته المشهورة، ويحتال على لقائها بمساعدة صديقه صامويل فى عرض البحر فى منتصف الليالى.

وحين يعلم رؤساؤه بمغامراته الليلية تلك، يصدر الأمر بنقله إلى الأستانة (القسطنطينية قديما). ويعود إلى إقامته فى حاضرة

الخلافة العثمانية هيامه الفنى والأدبى بالشرق الإسلامى الذى كانت تركيا رمزا له فى ذلك الوقت، ويدفعه ذلك الشعور إلى الاختلاط بالسكان بوصفه من الألبان المسلمين وتزيا بزيهم، وأقام فى حى أيوب الأنصارى الإسلامى القح، وكان طبيعيا أن يقوم بتعلم اللغة التركية التى كانت لا تزال أيامها تكتب بحروف عربية، وقد شهد لوتى إبان إقامته عزل السلطان مراد وتولى السلطان عبد الحميد سدة الخلافة العثمانية.

ولم يمض وقت طويل منذ انتقال لوتى إلى القسطنطينية حتى انتقلت إليها آزيادى مع زوجها التركى بعد أن أقنعته بنقل تجارته إلى العاصمة، وتستمر لقاءات العاشقين حتى صدور الأوامر بعودة البحرية الفرنسية إلى بلادها .ويفكر لوتى جديا فى الاستقالة والبقاء فى البلاد التى أحبها وبالقرب من آزيادى، إلا أنه يضطر إلى التخلى عن هذه الفكرة إشفاقا على والدته التى كان يُكن لها حبا عظيما. وكان وداع آزيادى للوتى مأساويا، وانعكس بعد ذلك فى الرواية التى وصف فيها الكاتب حياته فى تركيا وقصة غرامه، إذ أنها تنتهى بموت العاشقين على نحو فاجع. وبعد عودة لوتى إلى روشفور تنشب الحرب بين تركيا وروسيا، ويتناهى إلى سمعه خبر موت زوج آزيادى التركى، ولكن جميع محاولاته من أجل إحضارها إلى فرنسا كى يتزوجا ويستقرا معا تبوء بالفشل. ومن هنا

نشأت الأسطورة التى ربطت بين لوتى وآزيادى التى أصبحت رمزا لهيامه بالشرق، وللحب الضائع الذى سيذهب بعد ذلك بحثا عن أطلاله فى تركيا،وسيخلده، إلى جانب الرواية الشهيرة، فى الآثار التى سيجلبها من هناك إلى بيته فى روشفور، ويرجع إلى هذا الوقت إقامته للصالون التركى فى الطابق الأول من منزله والذى يرى فيه الزائر الطنافس والآثار التركية إلى جوار لوحة لآزيادى رسمتها مارى أخت لوتى بناء على وصفه لها.

وقد صدرت رواية آزيادى عام ١٨٧٩ بعد مفاوضات كثيرة مع الناشرين، وبدون اسم المؤلف ولكنها لم تلق نجاحا يذكر نظرا لنهايتها الفاجعة، ولكن ذلك لم يثن الناشر الفرنسى عن طلب رواية جديدة من لوتى، مما شجع الأخير على وضع رواية أخرى مستوحاة من فترة إقامته فى جزر تاهيتى، و يعرض الناشر الرواية الجديدة على جوليت آدم، وكانت هذه السيدة راعية للمفكرين والأدباء، وسيكون لها أثر بالغ فى حياة ونشاط كل من بيير لوتى ومصطفى كامل فيما بعد، وكانت تصدر مجلة أدبية هى «لانوفيل ريفيو» (هى نفس المجلة التى نشرت فيها مقالات لمصطفى كامل)، فنشرت فيها على حلقات رواية لوتى الجديدة وأطلقت عليها عنوان «زواج لوتى»، وقد لاقت الرواية نجاحا ورواجا ساحقين، وصدرت فى كتاب عام ١٨٨٠، وقد شجع هذا النجاح

مؤلفنا على إصدار رواية ثالثة هى «قصة فارس» عام ١٨٨١ ، وهى أول كتاب يصدر باسمه الأدبى الذى اختاره لنفسه: بيير لوتى وقد دفع نجاح الروايتين إلى اهتمام القراء بالرواية الأولى آزيادى، فأعيد طبعها عدة مرات وذاعت شهرة لوتى فى فرنسا كلها، وأجمع مشاهير الأدباء على الإعجاب به: إسكندر دوماس الابن، أناتول فرانس، إرنست رينان، كما كان مارسيل بروست من قرائه الحميمين.

ويرحل لوتى مع سفينته إلى الجزائر، وتلهمه الزيارة قصتين: «سُليمة» و سيدات «القصبة الثلاث» ، كما أقام بعدها صالونا عربيا فى بيته بروشفور ولما ضاق المنزل عن احتواء ما يجلبه الكاتب من أسفاره، عمد إلى شراء المنزل المجاور وضمه إلى منزله. وهكذا فبعد سفره إلى الشرق الأقصى، أسس معبدا يابانيا (باجودا) فى إحدى القاعات، وإن لم يبق له أثر فى المتحف الحالى، وخلال السنوات التالية، يقيم لوتى فى المنزل «الصالون الأحمر» «والصالة القوطية» اللذين يمكن زيارتهما الآن، كما يفتتح صالة للآثار القديمة يسميها رمزيا باسم صالة الموميات ولا يضمها المتحف الحالى.

ويلبى لوتى الرغبة الأساسية الثانية لوالدته فيتزوج فى أكتوبر ١٨٨٦ من «بلانش فرييه» ويسافران إلى إسبانيا لقضاء شهر العسل

فى مدريد ثم فى ربوع الأندلس وقصر الحمراء بغرناطة الذى ترك فى نفسه أثرا بالغا، انعكس بعد ذلك فى طريقة تأثيثه للقاعات العربية والإسلامية فى منزله، ويزور لوتى بعد ذلك إستانبول مرتين، كانت ثانيتهما بدعوة شخصية من السلطان عبد الحميد الذى اجتمع به فى قصر يلدز الشهير، وقبل إن سبب الدعوة حث لوتى على الكتابة عن تركيا، وهو ما فعله فى مجموعته المسماة «القسطنطينية ١٩٠٠»، ويستغل لوتى زيارته فى حمى السلطان كى يحمل معه شاهد قبر حبيبته آزيادى بعد أن اقتفى آثارها وعرف بوفاتها، ولا يعلم أحد على وجه اليقين ما إذا كان الشاهد الذى أتى به لوتى من تركيا والموجود الآن فى متحفه بروشفور هو الشاهد الأصلى أم هو نسخة منه طلب لوتى إعدادها على سبيل الذكرى، وقد وضع لوتى هذا الشاهد فى قلب الجامع الذى شيده فى صالة ضخمة من المنزل الثانى الذى وصله بمنزله الأصلى وقد حصل على مكونات هذا «الجامع» لدى زيارة له إلى دمشق، من أنقاض جامع أثرى هناك تمكن من شرائها ونقلها بحرا إلى روشفور، ويشكل هذا الجامع «اللوتى» أهم الصالات التى يضمها المتحف حاليا.

وينفذ لوتى رغبة ثالثة لوالدته عام ١٨٩٤، قبل عامين من وفاتها، وهى قيامه بزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين، وقد وصل

إلى هناك مرورا بمصر وبيروت ودمشق، ونتج عن هذه الرحلة ثلاثة كتب هامة هي: «الصحراء» «والقدس» «والجليل» بيد أن الزيارة الرئيسية له إلى مصر كانت في الفترة من ٢٤ يناير حتى ٣ مايو من عام ١٩٠٧ حين زار الديار المصرية بدعوة من الزعيم الوطني مصطفى كامل، وكان لوتي قد تعرف على مصطفى كامل في فرنسا عن طريق جولييت آدم التي لعبت دورا كبيرا في دعم القضية المصرية في فرنسا ضد الاحتلال البريطاني، وهكذا يحصل لوتي على «أجازة بدون مرتب» لمدة ستة أشهر يسافر فيها إلى مصر ويزور معالمها زيارة تفصيلية ويطّلع على جهاد صديقه «مصطفى» ضد الإنجليز الذي كان لوتي يكن لهم كراهية عميقة وقد كتب خلال الزيارة رسائل من مصر كانت تنشر في النسخة الفرنسية من جريدة «اللواء» التي يصدرها مصطفى كامل، في نفس الوقت الذي تنشر فيه في الفيجارو الفرنسية، وكان نتاج هذه الزيارة كتاب لوتي «موت أنس الوجود» الذي يقص بالتفصيل خطواته وخطراته في وادي النيل وقد رتب له صديقه المصري العظيم زيارة شيخ الأزهر والخديوي، وكل معالم القاهرة، بما في ذلك زيارة خاصة له وحده إلى المتحف المصري على ضوء الشموع برفقة مديره الفرنسي الشهير جاستون ماسبيرو، ثم تبدأ رحلته إلى الصعيد بالذهاب بالقطار إلى المنيا بصحبة

مصطفى كامل، ثم يستقل وحده «دهبية» فاخرة خاصة بالخديوى تهبط به حتى أسوان وتستغرق إقامته بالدهبية ستة أسابيع، يطوف خلالها بمدن الصعيد وقراها، يستمتع فيها بالنيل وبالآثار الفرعونية العظيمة، ولا يفسد عليه تلك المتعة إلا «أبناء وبنات كوك» كما كان يسمى السياح الذين تجلبهم شركة توماس كوك إلى كل الأنحاء! ويلحق به مصطفى كامل فى الأقصر ويزور معه معبد الكرنك أما لوتى فيعود من أسوان إلى القاهرة فى الدهبية ذاتها، ويمكث فيها حتى سفره إلى الإسكندرية ليستقل السفينة إلى مارسيليا.

وقد نشرت اللواء والفيجارو أول مقالتين عن الزيارة بينما كان لوتى لا يزال فى مصر، ثم توالت المقالات فى الصحيفتين حتى بلغت عشرين مقالا، وبعد ذلك، صدرت المقالات فى صورتها النهائية فى كتاب بعنوان «موت أنس الوجود» وأنس الوجود هو معبد فيله ذلك «المنتحى بأسوان دارا» الذى خلّف انطباعا عميقا فى نفس لوتى لدى زيارته له فى مكانه الأصلى (قبل نقله إلى مكانه الحالى عند بناء السد العالى)، وقد لاقى الكتاب نجاحا باهرا جعله أكثر كتب لوتى غير القصصية مبيعا، وتلقاه النقاد لقاء حسنا وإن انتقدوا فيه النبرة العالية لكراهية الإنجليز التى تسوده وقد أرجع البعض تلك النبرة الحادة إلى اقتناع لوتى بآراء مصطفى

كامل وبعدالة قضيته وكفاح الشعب المصرى لإجلاء الإنجليز عن مصر وقد وقع نبأ وفاة مصطفى كامل على لوتى وقع الصاعقة، مما جعله يهدى كتابه إليه، بهذه العبارة البليغة: «إلى ذكرى صديقى العزيز والنبيل مصطفى كامل باشا،الذى وافته المنية فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ إبان جهده العظيم فى إعلاء صرح الوطن والإسلام فى مصر».

ويضم الكتاب خواطر متنوعة وحقائق تاريخية عن القاهرة فى الوقت الذى زارها فيه لوتى مع التركيز على المساجد الأثرية وضواحى العاصمة، وعن الأزهر الشريف «مركز الإسلام» وعلومه ودراساته وعن قدماء المصريين والنيل، ثم عن مدن الصعيد الثرية وخاصة الأقصر وجزيرة فيله، وتجدر الإشارة إلى أنه كان من الصعب العثور على هذا الكتاب ولو بلغته الأصلية حتى عام ١٩٩٠ حين أعيد نشره مع مقدمة عن احتفاء الصحافة المصرية بزيارة لوتى، ومع مقتطفات من يوميات لوتى غير المنشورة عن زيارته المصرية، ولا شك أن ترجمة هذا الكتاب إلى العربية مهم للتعريف بجانب من أهتمام لوتى بمصر وبالشرق عموما، كما أن وجود ترجمات عربية لأعماله توضع نسخ منها فى متحفه لهو خير تحية لهذا المؤلف الفرنسى الذى شغف بالعرب وبالإسلام على نحو تبدى حياته وأعماله على حد سواء.


فى
عرين الأسد

والأسد الذى نعنيه هنا هو وليام شكسبير، الذى يعتبره الجميع أعظم شاعر أنجبته الأرض قاطبة، والذى لا تكتمل ثقافة أى إنسان إلا إذا عرف عنه وقرأ له، ومن المعروف أنه حين يذكر اسم The Bard أى الشاعر، على إطلاقه، يكون المقصود به هو شكسبير، وقد اعترف أكبر نقاد أمريكا الأحياء وهو هارولد بلوم بأن الموروث الأدبى الغربى بحاله هو شكسبير، وأن أعماله تتخطى حدود الزمان والمكان، وتترك آثارها فى كل عصر وفى كل ثقافة، وأنه هو أول من جسّم اصطلاح التعددية الثقافية على أكمل وجه.

وعلى الرغم من قلة المعلومات عن حياة شكسبير، إلى الحد الذى تشكك معه الكثيرون فى وجوده أصلا، ونسبوا أعماله إلى أدباء أخرين معاصرين له، فإن آثاره الباقية فى مسقط رأسه، ستراتفورد - أبون - إيفون، غزيرة ووافية وتستحق شد الرحال إليها،

بل وتكرار الزيارة مرات ومرات ذلك أن الكثيرين من عشاق الشاعر الدرامى يحرصون على رؤية أماكن معينة فى بلدة شكسبير تحت كل الأوقات والظروف الممكنة، ليستخرجوا منها ملامح قد تكون قد أثرت فى شخصيته، أو صورا خيالية يكون قد استخدمها فى شعره ومسرحياته ولهذا فإن ستراتفورد - أبون - إيفون هى بلا منازع من أهم مناطق الجذب للسياحة الأدبية فى العالم.

وتقع البلدة في مقاطعة واريكشير، فى الشمال الشرقى من لندن، وتشمل الآثار التى لا تزال موجودة فى المنزل الذى ولد فيه الشاعر، والمدرسة التى تعلّم فيها فى صباه ومنزل والدته مارى آردن، ومنزل الشاعر ناش زوج حفيدة شكسبير الذى يضم متحفا نموذجيا للفترة التى عاش فيها شكسبير، ثم كوخ «آن هاثاواى» زوجته وكنيسة الثالوث المقدس حيث يوجد قبره، وقد رتب المكتب الإعلامى للبلدة جولة شاملة تضم كل هذه الأماكن بتذكرة واحدة مخفضة، تسهيلا للسائحين والزوار الذين يتوافدون على البلدة من كل أنحاء العالم والذى يبلغ متوسطهم ألفى زائر كل يوم.

وقد ولد ويليام شكسبير فى ٢٣ أبريل ١٥٦٤ فى شارع هنلى بستراتفورد، وأمه هى مارى آردن، وأبوه جون شكسبير من تجار الأصواف وصانع قفازات، وقد التحق شكسبير بمدرسة ستراتفورد

حين بلغ السابعة من عمره، واستمر فيها حتى سن الرابعة عشرة، وكان يقوم بالتدريس فيها أحد خريجى جامعة أكسفورد الشهيرة، وتتركز الدراسة فى اللغة اللاتينية، وبعض النصوص الإنجليزية، والكتاب المقدس، ولابد أن شكسبير قد بدأ دراسته لكتاب بلوتارك عن حياة العظماء فى هذه المدرسة، وهو الكتاب الذى استمد منه حبكة بعض مسرحياته، وكتاب «هولنشيد» فى التاريخ الذى اعتمد عليه فى كثير منها مثل مكبث وهملت والمسرحيات التاريخية.

وحين كان شكسبير فى الثامنة عشرة من عمره تزوج آن هاثاواى التى كانت تكبره بسبع سنوات وطبقا للتقاليد السائدة آنذاك، انتقلت الزوجة للإقامة مع زوجها فى منزل أسرة الزوج بشارع هنلى، حيث أنجبا ثلاثة أطفال: سوزانا، ثم التوأمين هامنت وجوديث، وهكذا بدا وكأن شاعرنا قد كتب عليه أن يعيش حياة تقليدية هادئة فى بلدته الصغيرة وبين أسرته، ولكن القدر كان قد خط له غير ذلك، فقد وقعت أحداث غامضة، إما نتيجة مشاكل قانونية، أو مشاكل زوجية، أرغمت شكسبير على مغادرة البلدة والتوجه إلى العاصمة لندن حيث بدأحياته كمسرحى هناك.

وكانت إنجلترا حين وفد شكسبير إليها تمر بأكثر أوقاتها إثارة وأهمية، بعد أن اكتشفت مؤامرة كاثوليكية للإطاحة بملكتها البروتستانتية الشهيرة إليزابث الأولى وتنصيب ابنة عمها مارى

ملكة اسكتلندا على العرش بدلا منها، بمساعدة فيليب الثانى ملك إسبانيا وبعد إعدام مارى، عم الملك الإسبانى إلى تجهيز حملته البحرية المعروفة باسم «الأرمادا» لتأديب إنجلترا وكانت البلاد تغلى استعدادا للحرب آنذاك، وبعد اندحار الإسبان وخروج إنجلترا منتصرة، عمت البلاد فترة من الرخاء والازدهار ترعرعت فى ظلها الآداب والفنون، وأنتجت من بين ثمارها روائع شكسبير، وقد عمل شكسبير بعد وفوده إلى لندن فى أعمال مختلفة، أهمها كممثل مسرحى، ولكن شهرته كمؤلف مسرحى وشاعر طغت على كل شىء عداها، ويتفق النقاد على أن كتاباته بدأت بمسرحية «كوميديا الأخطاء» وانتهت بمسرحية (هنرى الثامن) وتخللتهما مسرحياته الكبرى مثل ريتشارد الثالث وروميو وجولييت وهملت ومكبث والملك لير. ويبلغ عدد مسرحيات شكسبير ٣٧ مسرحية عدا السونيتات الشهيرة وعددها ١٥٤ سوناته، ثم ثلاث قصائد طويلة هى اغتصاب لوكريس «وفينوس وأدونيس» و«العنقاء والسلحفاة».

وقد ازدهرت أحوال شكسبير المالية بعد فترة من انتقاله إلى لندن، مكنته من المشاركة فى ملكية مسرح «الجلوب» فى لندن الذى كانت مسرحياته تقدم على خشبته، كما أنه اشترى منزلا مستقلا لأسرته فى ستراتفورد أطلق عليه اسم «نيو بليس»، ولم يبق منه الآن سوى أساساته بعد أن أمر أحد موظفى البلدية، فى

منتصف القرن الثامن عشر، بهدمه إثر مشادة حول الضرائب المستحقة على المبنى بيد أنه لا يزال يوجد بئر المياه الخاصة بالمنزل وشجرة توت عتيقة ضخمة يقال إن شكسبير قد زرع نبتتها بنفسه فى ذلك المكان.

وبعد الاستقرار المالى والأدبى الذى حققه الشاعر فى لندن، عاد إلى ستراتفورد فى ١٦١٠ وتوفى عام ١٦١٤ فى نفس اليوم الموافق لمولده: ٢٣ أبريل، عن ٥٢ عاما، ودفن فى كنيسة الثالوث المقدس بستراتفورد، ويرى الزوار قبر شكسبير فى الكنيسة، وعليه السطور التى أعدها بنفسه قبل وفاته وهى تقول - كما ترجمها الدكتور لويس عوض: «أيها الصديق الكريم مرضاة ليسوع أحجم عن نبش الرماد المحتوى هاهنا، بورك من تجاوز عن هذه الأحجار واللعنة على حرك رميمى».

وأهم الآثار فى البلدة هو المنزل الذى فيه شكسبير، وفيه يرى الزائر ما يفترض أن يكون عليه مهد الشاعر وليدا، ويشرح المرشد كيف جلبوا إلى البيت من الأثاث والأدوات ما يمثل العصر الذى عاش فيه شكسبير، حتى يبدو للرائى، كما كان يوم كان يعيش فيه كما يحتوى البيت على عدد من مخطوطات أعمال شكسبير وطبعاتها النادرة يتفحصها الزائرون عبر أغطية زجاجية، وقد مر هذا المنزل بمراحل متعددة بعد وفاة أفراد الأسرة، فقد كان حتى

عام ١٨١٣ محلا لتأجير العربات والجياد، مع لوحة صغيرة تشير إلي أن شكسبير قد ولد فى هذا المنزل، وحين انتشرت شائعة بأن ثريا أمريكيا من المولعين بالفنون يعتزم شراء المنزل ونقله إلى أمريكا، سارع الغيورون بالاكتتاب لشراء المبنى وتحويله إلى متحف لشكسبير. وما بين عامى ١٨٤٧ و ١٩٣٠، كانت جمعية شكسبير تمتلك كل الآثار الشكسبيرية فى البلدة، واكتفى الأمريكان، الذين يحاولون وضع بصماتهم أينما استطاعوا، بلوحة فى البلدة تبين المشاهير من أمريكا الذين زاروا ستراتفورد - أبون - إيفون!

ومن معالم البلدة الأخرى تمثال شكسبير الذى يتوسط أحد ميادينها، ويرجع تاريخه إلى عام ١٧٦٨، وقد تبرع به آنذاك الممثل الكبير دافيد جاريك بعد أن عجزت البلدة عن جمع المال اللازم لإقامة التمثال، بيد أن متعة زيارة «عرين الأسد» لاتكتمل إلا بمشاهدة إحدى مسرحياته هناك، فى مسرح شكسبير الملكى. وهى تجربة فريدة مررت بها، ولم يضارعها إثارة غير تجربة حضور مسرحية روميو وجولييت التى قدمتها فرقة «الأولد فيك» عند سفح الأهرمات المصرية فى أوائل الستينيات.

ولشكسبير شهرة كبيرة فى اللغة العربية والعالم العربى، وقد قُدمت العديد من مسرحياته على المسرح منذ أوائل القرن وصدرت عنه عدة كتب، أشملها كتاب العقاد «التعريف بشكسبير»

وكتاب لويس عوض «البحث عن شكسبير» وهناك ترجمة رائعة للسونيتات لبدر توفيق، وقد ترجمت معظم مسرحياته إلى العربية، ومن أشهر مترجميه خليل مطران ولويس عوض ومحمد حمدى وجبرا إبراهيم جبرا ورياض عبود ومصطفى حبيب، وقد توفر منذ سنوات عدة الدكتور محمد عنانى على إصدار ترجمات جديدة للمسرحيات الكبرى، وهى ترجمات فريدة تجمع بين النثر والشعر، على نحو ما يرد فى النص الأصلى ومن ثم فقد جاءت أقرب ما يكون إلى الأصل فى سلاسة وطلاوة لم يجتمعا من قبل فى الترجمات السابقة، وكلنا أمل أن يصدر الدكتور عنانى المزيد من هذه المسرحيات ثم تجمع فى مجلد أو مجلدين فتكون مرجعا للمسرحيات الشكسبيرية بالعربية، كما هو الحال فى اللغات الرئيسية الأخرى .

الجنة الأرضية

في عام ١٨٨٣، قرر الرسام الفرنسي كلود مونيه الرحيل عن باريس بحثا عن الطبيعة والضوء اللازمين لفنه، ووقع اختياره على قرية «جيفرني» من أعمال مدينة فرنون كي يستقر فيها حيث استأجر بيتا هناك وفي عام ١٨٩٠، يشتري مونيه ذلك البيت ويبدأ في إنشاء حدائق غناء من حوله، ومنذ ذلك التاريخ وحتى وفاة الفنان في ١٩٢٦، أخذ يتوسع شيئا فشيئا في تلك الحدائق حتى بلغت الصورة التي يراها الآن زائرو متحفا الفنان وحدائقه في جيفرني التي تبعد ٥٧ كيلومترا جنوب باريس.

وقد عاش مونيه في جيفرني حتى وفاته، وبعدها سقطت الحدائق فريسة الإهمال حتى كادت تندثر آثارها. وفي عام ١٩٦٦ أهدى ميشيل مونيه «ابن الفنان الكبير» الضيعة كلها إلى أكاديمية الفنون الجميلة في فرنسا، بيد أن عملية إعمار البيت والحدائق على

نفس النمط الذى تركه مونيه لم تبدأ إلا عام ١٩٧٧ ، وذلك على يد المهندس جيرالد فان كمب الذى سبق له إعادة الحياة إلى قصر فرساى. وتمت عملية جيفرنى بالاستعانة بكل من عرف الفنان وعاصر حياته عن قرب، ومع تلقى التبرعات المالية الكافية لتغطية ذلك المشروع الكبير، والتى جاء معظمها من المليونيرة الأمريكية أتشيسون والاس التى كانت من عشاق فن مونيه، والتى تم صنع لوحة تشيد بفضلها على باب المتحف. وافتتح المتحف وحدائقه لأول مرة فى سبتمبر ١٩٨٠ ، ومنذ هذا التاريخ أصبحت تلك البقعة مزاراً ،فنيا ،لمحبى هذا الفنان الشهير الذى تنتشر لوحاته فى كل متاحف العالم.

ويستقبل المتحف نصف مليون زائر كل عام على مدار سبعة أشهر فى السنة ويطوف الزوار ببيت الفنان بحجراته المتعددة، ويتعرفون على أدواته وعاداته فى الرسم وفى المأكل والمشرب، والمنزل برتقالى اللون تتسلقه الورود الكثيفة من كل لون ونوع وهناك بعد ذلك الأتيليه الذى كان الفنان يعمل فيه، وهو يضم الآن قسما للمبيعات يشمل كل ما يتصل بالفنان من تذكارات ولوحات، ثم يخرج الزائر إلى الحدائق الغناء التى صممها مونيه بنفسه،ومن خلال الممرات الضيقة المغطاة بالحصباء، يسير المرء بين مئات من أحواض الزهور المختلفة من ورود وسوسن وزنابق متنوعة

وأزهار الخشخاش التى خلدها الرسام فى لوحاته وتنقسم الحديقة إلى قسمين كبيرين يربط بينهما ممر أرضى يقوم تحت الطريق العام الذى يشق الضيعة، كما أن أماكنها المشهورة تعرف بأسماء معينة فهناك «الركن النورمندى» الذى يخترقه طريق مغطى بالأقواس الحديدية التى تغطيها الورود من كل جوانبها. ثم هناك «حديقة المياه» التى أنشأها مونيه بتحويل مجرى نهر صغير يمر بالقرية إلى داخل حديقته، مما أثار أيامها خوف السكان من أن تؤدى «النباتات الغريبة» التى يزرعها الفنان إلى تسميم مياه الأنهار التى يعتمدون عليها! وقد استلهم مونيه فى إنشاء بحيرته رسوم الحدائق اليابانية التى كانت شائعة بين الفنانين آنذاك وفى حديقة المياه يوجد الجسر اليابانى الشهير تغطيه نباتات «الوستريا» المتسلقة، وجسور أخرى أصغر منه. وثمة أشجار الصفصاف بتعريشاتها الكثيفة فى كل مكان حيث تبدو أشعة الشمس من خلالها كأنها «دنانير تفر من البنان» ثم هناك زنابق التى تزهر فى أركان البحيرة طوال الصيف، و التى رسمها الفنان فى لوحات ضخمة الحجم معظمها الآن فى متحف الأورانجيرى بباريس وبعضها فى متحف الفن الحديث بنيويورك.

وإن ما ينتاب الزائر الذى يتجول فى أنحاء ذلك الفردوس الأرضى، هو التفكير فيما يرى من بديع صنع الله الذى يتجلى فى

ألوان الأزاهير والأشجار والمياه والطيور، ثم فيما خطته ريشة الفنان فى لوحاته التى تصور هذه الأشياء نفسها، فيجد بالطبع أنه لا مجال للمقارنة، فالطبيعة الإلهية الحية لا يضارعها أى شيء من صنع الإنسان المخلوق ويقفز إلى ذهننا نحن أبناء لغة الضاد ما ترنم به أحمد شوقى مبينا نفس هذا المعنى حين قال متحدثا عن الربيع:

ساحرٌ فتنةُ العيون مبينٌ فصَّل الماء فى الربى بجُمانِه.

عبقرى الخيال زاد على الطيف وأربى عليه فى ألوانِه.

صبغةُ الله! أين منها رفائيل ومنقاشُه وسحر بنائِه.

وقد ولد كلود مونيه فى باريس عام ١٨٤٠، وانتقل مع أسرته بعد ذلك إلى مدينة الهافر الشمالية الساحلية بمقاطعة نورماندى، حيث قضى فترة صباه، وقد بدا ميله إلى الرسم منذ طفولته، فكان يرسم صورا كاريكاتورية لزملائه ولمدرسيه بدلا من الإصغاء إلى الدروس وتعرف هناك بعد ذلك إلى الرسام النورمندى «يوجين بودان» الذى علمّه الاهتمام برسم البحر والسماء والطبيعة من حوله، ثم رسخ اهتمامه بالضوء وآثاره على الموضوعات التى يرسمها خلال إقامته لمدة عام فى الجزائر إبان فترة تجنيده التى كانت ستستمر ستة أعوام لولا إصابته بالتيفود وإخراجه إثر ذلك

من الخدمة العسكرية. وانتقل بعد ذلك إلى باريس حيث رفض الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، مفضلا عوضا عن ذلك تلقى دراسات وتدريبات حرة فى أكاديمية خاصة كان من بين الدارسين فيها رينوار وسيزلى وبازيل، الذين جمعتهم أواصر الصداقة بمونيه وأصبحوا يلتقو ن فى مقاهى باريس يتناقشون فى أمور فنهم مع غيرهم من الفنانين وقد تعرفوا هناك على سيزان وبيسارو وموريزو وديجا ومانيه، وكلهم كانوا يتصفون بالانطباعية فى وقت من الأوقات.

كانت تلك المجموعة من الفنانين قد اختطت لنفسها نهجا فى الرسم يختلف عن الطرق التى كانت سائدة أيامها، تلك التى كان كبار الرسامين يتبعونها فى باريس، والذين كانت أعمالهم تعرض فى الصالون السنوى الذى يقام تحت رعاية الدولة، والذى لم يكن يتضمن إلا الأعمال الكلاسيكية التى يرضى عنها رجال أكاديمية الفنون الجميلة، وبدلا من ذلك، كان هؤلاء الرسامون الانطباعيون يرقبون الطبيعة عن كثب ويدرسون الظاهرة المرئية بطريقة تكاد تكون علمية، ثم ينقلون أفكارهم عن كل ذلك إلى لوحاتهم، ورغم أنهم اتجهوا فى رسمهم إلى تصوير موضوعات الحياة اليومية، فقد تجنبوا الموضوعات القبيحة أو المبتذلة وكان أفراد المجموعة يجلُون الرسام إدوار مانيه وتعلموا منه الكثير، وكان مانيه رائدهم فى

الثورة على الصالون الرسمى، حين رفض صالون عام ١٨٦٣ لوحته الشهيرة «إفطار على العشب» ولوحات عدد آخر من المجددين، فثارت ثورتهم إلى الحد الذى دفع الإمبراطور نابليون الثالث إلى إنشاء صالون آخر لهم عرف باسم «صالون المرفوضين».

وبعد زيارة عدة شهور إلى لندن عام ١٨٧٠ تعرض فيها لتأثيرات عملاقى الرسم البريطانيين كونستابل وتيرنر، عاد مونيه إلى باريس ليستأنف نشاطه فى الرسم بين أحضان الطبيعة، فأنجز مع زميله رينوار عديدا من اللوحات عن نهر السين وضفافه ومقاهيه ونسائه. وقد تحلقت جماعة مونيه وزملائه حول إدوار مانيه، حيث كانوا يعقدون ندواتهم الفنية فى مقهى «جيربوا» الشهير آنذاك فى مونمارتر، حى الفنانين، وبعد ذلك، حين رفض الصالون الرسمى أعمال خمسة من أفراد تلك الجماعة، هم مونيه وسيزلى ورينوار وديجا وبيسارو، نظّموا معرضا مستقلا لهم عام ١٨٧٤ فى صالون المصور الفوتوغرافى الشهير «نادار» وقد تعرضت أعمالهم لسخرية المشاهدين والنقاد وأطلق عليهم أحدهم اسم الانطباعيين نقلا عن عنوان لوحة مونيه الشهيرة «انطباع شروق الشمس» ثم لصقت بهم هذه التسميه منذ ذلك الوقت وأصبحت علما لتلك المدرسة التصويرية. ورغم أن أفراد تلك

الجماعة كانوا ينضوون فى البداية تحت شعار جماعى، فقد كان لكل منهم أسلوبه المغاير للآخرين، ثم تفرقت بهم السبل بعد ذلك وأصبح لكل واحد منهم نهجه الخاص به وكان الوحيد الذى ظل على إخلاصه لأسس الانطباعية وتقاليدها حتى النهاية هو كلود مونيه.

كان مونيه يتجه فى لوحاته إلى رسم موضوعات حية ممايدور حوله وما يراه فى حياته اليومية، ويرسم فى الأماكن المفتوحة، فى أحضان الطبيعة. وقد انصب اهتمامه على الضوء، فأخذ يدرس الطريقة التى يسقط بها على الأشياء فى كل وقت من أوقات النهار. وأحب مونيه رسم انعكاسات الأشياء فى صفحة المياه، حتى أنه قد شيد لنفسه قاربا خاصا طاف به فوق المياه بينما هو يرسم مايراه أمامه وما يراه على صفحة النهر. وكثيرا ما كان يرسم الموضوع الواحد فى أوقات مختلفة من أوقات النهار وفى فصول مختلفة، كيما يبين كيف يختلف مرأى الموضوعات باختلاف الضوء الملقى عليها. وأفضل الأمثلة على تلك الطريقة هى لوحاته عن حزم التبن فى الحقول، وكتدرائية روان، ومبنى البرلمان فى لندن.

وقد عانى مونيه من الفاقة فى السنوات التى صاحبت معرض الانطباعيين الأول، ولكن أحواله المالية تحسنت تدريجيا بعد ذلك،

حتى تمكن آخر الأمر من الانتقال إلى جيفرنى والاستقرار هناك وسط منشأته الفنية. وحين يرى المرء هذه الضيعة، ويشاهد منزل الفنان هناك فيتعرف على طريقة حياته، يدرك تماما أنه كان يعيش فى سعة وترف لم يعرفهما كثير من أقرانه فى ذلك الوقت، خاصة وأن بعضهم كان يلقى نهايته فى جو من البؤس والفقر، وما مثالا مود يجليانى وفان جوخ منه ببعيد. وقد أنفق مونيه الكثير من الأموال على فنه وحدائقه،فكان يدفع المال الوفير للمزارعين فى الحقول كيما يتركوا أكوام التبن ليرسمها فى أوقات زمنية متباينة. كذلك صرف الكثير من أجل تحويل مجرى نهر صغير إلى حدائقه حتى يشكل منه بحيرته الأساسية. وكان يبتاع بأى مال يصله المزيد من الأرض المحيطة به كى يوسع من حدائقه ويزيد من أنواع الزهر والشجر والنباتات الجديدة فيها.

وقد تزوج مانيه مرتين، أولاهما فى سنوات تكوينه الفنى من «كاميليا دونسييه» التى نراها فى كثير من لوحاته المشهورة وفى لوحات زملائه الأخرين! وكان من عادة الانطباعيين أن يرسم أحدهم الآخر، بمن فى ذلك زوجاتهم وأطفالهم، وأن يرسموا أصدقائهم ومعارفهم، فضلا عن اللوحات الذاتية: Self Portyaits؛ وقد توفيت عام ١٨٨٢ قبيل انتقال مونيه إلى جيفرنى. وبعد ذلك تزوج من «أليس أوشديه» التى قامت على رعاية أسرة كثيرة العدد

تتكون من الفنان وأولاده بالإضافة إلى أولادها هى من زوجها السابق. ولما كان مونيه يدعو الكثير من أصدقائه إلى زيارة ضيعته وحدائقها، لذلك يرى زوار المتحف كبر حجم قاعة الطعام، التى صممت خصيصا كى تتسع لأفراد الأسرة العديدين بالإضافة إلى أصدقاء الفنان، الذين كان من بينهم كليمنصو رئيس وزراء فرنسا. وكان كليمنصو هو الذى أقنع مونيه بالتوفر على رسم لوحات زنابق المياه ضخمة الحجم، والتى أهدى معظمها إلى الدولة بعد ذلك.

وقد توفى كلود مونيه فى ٥ ديسمبر ١٩٢٦، وشيع جثمانه كبار رجال الفن والدولة فى عصره، ودفن فى القرية التى أحبها والتى خلّد اسمها بمتحفه الذى يؤمه عشاق الفن من كل مكان وقد أصبحت لوحاته الآن تباع بأعلى الأسعار فى سوق الفن العالمية، ولا تتفوق عليها من هذه الناحية إلا لوحات فا ن جوخ.


قاهرة
نجيب محفوظ

كثيرا ما يقال فى دوائر الأدب العالمى أنه لو افترض أن زالت مدينة دبلن من الوجود لأمكن إعادتها مرة أخرى بناء على ما وصفها به جيمس جويس فى روايته «عوليس» ويكاد هذ القول ينطبق كذلك على أحياء القاهرة القديمة وكتابات نجيب محفوظ عنها، مع بعض الاختلافات التى أملتها روح الإبداع، ومعظم روايات وقصص «الأستاذ» يدور فى القاهرة، وقليلها فى الاسكندرية، ونادرا ما يرد الريف والقرية فى أعماله، ولا عجب، فهو قد عاش حياته فى العاصمة، ما بين أحيائها القديمة والجديدة، وعشقها، وطاف بشوارعها وحواريها وأزقتها، وتنقل بين مقاهيها، وجال فى منطقة «وسط البلد» كما نسميها نحن القاهريين، فانعكست كل هذه الأماكن فى رواياته وقصصه وخاصة الأحياء القديمة. وأول ما يلفت النظر إلى استحواذ القاهرة

القديمة ـ قاهرة المعز ـ على قصص وروايات الأستاذ، عناوين الروايات التى أخرجها فى فترته الواقعية الصرفة، مثل خان الخليلى، وزقاق المدق، بين القصرين، السكرية، ومن الجدير بهذه المنطقة أن تكون بداية لمشروع جديد للسياحة فى مصر، وهو السياحة الأدبية، وهو نوع قد استقر فى كثير من الدول الأوروبية، خاصة إسبانيا وفرنسا. ففى إسبانيا، هناك «طريق» سرفانتس ودون كيخوته، وطريق لوبى دى فيجا، وطريق لوركا، وهكذا، وهى رحلات تشمل زيارة الآثار المتعلقة بهؤلاء الكتّاب. وفى فرنسا، تقوم مكاتب الإعلام فى كثير من المدن بتنظيم جولات لشرح أعمال وحياة الفنانين والأدباء الذين عاشوا فيها، مثل آرل بالنسبة لفان جوخ، وكومبور لشاتوبريان، وشارلفيل لرامبو وغيرها كثير، وبالفعل، بدأت الكتب السياحية التى تكتب بالفرنسية عن مصر تتضمن فصولا عن نجيب محفوظ وقاهرته وأعماله، بالإضافة إلى فنانين مصريين آخرين.

وقاهرة نجيب محفوظ تشمل أساسا مناطق الجمالية والغورية والحمزاوى وباب الخلق والدرب الأحمر والحلمية والموسكى والأزبكية وباب الشعرية والبغالة والحسينية والسكاكينى والوايلى. وعصب هذه المنطقة هو شارع المعز لدين الله، الذى يخترق معظمها، والذى تعرف أجزاء منه بأسمائها القديمة، ومنها

بين القصرين وقصر الشوق، واسم بين القصرين يرجع إلى العصور الماضية حين كان المكان بين قصرين كبيرين أحدهما غربى والآخر شرقى. وتضم المنطقة مجموعات أثرية متكاملة، تشى بمرور العصور التاريخية عليها، وكل منها ينتمى لفترة تاريخية واضحة فى تاريخ القاهرة، منها مجموعة قلاوون الأثرية، ومجموعة السلطان الناصر، ومجموعة السلطان برقوق، ومجموعة عبد الرحمن كتخدا. وأحد مراكز العالم المحفوظى يتمثل فى المشهد الحسينى حيث مقام سيدنا الحسين الذى يتردد ذكره كثيرا في روايات الأستاذ، ويمثل خيطا جاريا فى كل أجزاء الثلاثية، حيث لكل شخصية فيها نظرتها الخاصة للحسين، خاصة كمال عبد الجواد الذى تلقى أول صدمة له عندما عرف من مدرس التاريخ أن مسجد الحسين لا يضم رفاته بعكس ما كان يظن دائما. بيد أن بعض كتب التاريخ يقص علينا أن رأس الشهيد الكريم سيدنا الحسين مدفون في مقامه، حين نقلت إلى القاهرة من «عسقلون» بعد أن تهددت تلك المدينة الحملات الصليبية عام ١١٥٣.

وهذه المنطقة عامرة بالمساجد الأثرية: جامع المؤيد، جامع تغرى بردى، جامع الغورى، جامع السلحدار، جامع أبى الدهب، الجامع الأزرق، جامع السلطان برقوق، جامع الفكهانى، الجامع

الأقمر، ثم جامع الحاكم بأمر الله الذى كان قد طاله الإهمال إلى أن قامت طائفة البهرة الهندية بتجديده وتعميره. وهناك علامات بارزة فى حياة نجيب محفوظ ورواياته، فهى عامرة بالأسبلة والوكالات والخانقات والقصور والمدارس القديمة والزوايا والحارات والقصبات. ومن هذه: بيت السحيمى الذى يرجع إلى عام ١٦٤٨ وهو الآن ملك للدولة، وبيت الرزاز، ووكالة الغورى، وكالة قايتباى، ثم قصر المسافرخانة الذى فقدناه حديثا ونأمل أن يستعاد بكل رونقه.

ومن المعروف أن نجيب محفوظ قد ولد فى ١١ ديسمبر ١٩١١ فى الجمالية، فى ميدان بيت القاضى الذى كان يقع فى مواجهة قسم شرطة الحى. والقسم لا يزال فى مكانه، إلا أن بيت مولد الأستاذ قد حل مكانه الآن منزل حديث. وكانت نوافذ البيت الجانبية تطل على درب قرمز، الذى ورد ذكره فى الثلاثية حيث أختبأت الأسرة فيه هربا من الغارات الجوية. وبالقرب من درب قرمز مبان أثرية عديدة، قام المعهد الأركيولوجى الألمانى بترميمها ونالت جائزة أغا خان عام ١٩٨٣ وقد بدأ نجيب محفوظ دراسته فى كتّاب الحى الذى يقع فى حارة «الكبابجى»، وآثاره المتهدمة لاتزال موجودة. ثم التحق بمدرسة خليل أغا الابتدائية، التى تقوم مكانها الآن إدارة الجامع الأزهر، ثم فى مدرسة بين

القصرين الابتدائية، وكان من أوائل المقاهى التى تطالعها عيناه مقهى «خان جعفر» ما بين ميدان بيت القاضى والحسين، والذى كانت تتلى فيه قصص أبى زيد الهلالى على الربابة، قبل ظهور الراديو الذى قضى على هذا الفن الشعبى الجميل ذى التاريخ الطويل، وفى سينما الكلوب المصرى شاهد أول العروض السينمائية فى حياته، وكانت أشرطة المغامرات والمسلسلات الصامته؛ وقد ذهب بطل قصر الشوق إلى هناك لمشاهدة أفلام شارلى شابلن الأولى، وفى الحسين أيضا يقع مقهى الفيشاوى الذى يمثل أحد أشهر أماكن التجمع المحفوظى. ومن المقاهى الأخرى فى هذه المنطقة قهوة أحمد عبد الله فى خان الخليلى، التى قال عنها الأستاذ أنه ذكرها بالاسم فى الثلاثية من فرط إعجابه بها.

وفى عام ١٩٢٤ تنتقل أسرة نجيب محفوظ إلى حى العباسية، حيث اشترى والده بيتا هناك بعد أن غادرت معظم الأسر حى الجمالية. وكانت العباسية أيامها تختلف عن عباسية أيامنا الحالية، فقد كانت تتكون من بيوت منفصلة على هيئة فيلات، تقوم مكانها الآن العمائر الحديثة الشاهقة. والعباسية هى المحور الثانى فى حياة الأستاذ ورواياته فمن المعروف أن مقاهى العباسية لعبت دورا هاما فى لقاءاته مع أصدقائه وخلصائه. فهناك تقع «قهوة عرابى» التى كانت الشلة تجتمع فيها مساء كل خميس، ومن قبلها مقهى قشتمر

الذى أصبح الرابطة التى تجمع شخصيات رواية بنفس الاسم، والعباسية وأهل العباسية مذكورون بالتفصيل فى رواية «صباح الورد» كما أن قصة حب كمال عبد الجواد لعايدة شداد، فى الجزء الثانى من الثلاثية، تدور كلها فى سرايا آل شداد فى العباسية التى كانت تمثل أيامها الفروق الطبقية بين سكانها وسكان الأحياء الشعبية التى ينتمى إليها كمال. وقد تجسدت تلك الفوارق فى القول الذى تردد بين كمال وسليم عن الفرق بين «ابن التاجر وابن المستشار» وكانت صدمة كمال فى حبه الفاشل لعايدة من التجارب التى صهرت روحه وأثّرت فى مستقبل حياته، وهى من أحداث الثلاثية التى تمس قلوب قارئيها أكثر من غيرها: فمن منّا لم تكن له مثل هذه التجربة، سواء كان الاسم عايدة أم شريفة أم ليلى..
وقد ذكر نجيب محفوظ أن قصة عايدة لها أساس واقعى فى أول حب رومانسى يمر به فى حياته، مع فتاة كان يراها فى الشرفة فيبدو وجهها له كلوحة الجيوكندا، فتاة «كانت تميل إلى الطابع الأوروبى فى مظهرها وتحركاتها»، ويقارن هذا بعايدة شداد «ذات الطابع الباريسى» والأساس الذاتى فى شخصية كمال عبد الجواد والمؤلف لا يحتاج إلى بيان، وقد أشار إليه الأستاذ بنفسه حين قال.. «ولقد صورت قصتى مع تلك الفتاة فى قصر الشوق مع تعديلات تتفق مع الإطار العام الذى وضعته للرواية».

وقد ظل الأستاذ فى حى العباسية حتى عام ١٩٥٤ . وشهدت تلك الفترة دراسته الجامعية فى قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، ووفاة والده فى عام ١٩٣٧ ، ثم قراره تكريس نفسه للأدب والفن القصصى بوجه خاص ومشروعه فى تقصى تاريخ مصر الفرعونية، الذى كان نتاجه الروايات الثلاث الأولى. ثم انتقل بعد ذلك إلى الروايات الواقعية التى استمد بيئتها من الأحياء التى عاش فيها عرفها تمام المعرفة. فبالإضافة إلى زياراته للقاهرة المعزية التى لم تنقطع أبدا، عاد إليها أيضا كموظف فى أوائل الخمسينات للعمل فى مكتبة تابعة لوزارة الأوقاف بقبة الغورى التى تطل على حى الغورية، ذوقد انتقل إليها بناء على طلبه وأنجز فيها الكثير من قراءاته واطلاعه، وحين يتزوج نجيب محفوظ عام ١٩٥٤ ، ينتقل للسكنى فى عوامة فى النيل بالقرب من كوبرى الجلاء بالدقى. والعوامات تظهر فى عدد من أعماله، منها الثلاثية، وبصورة أبرز فى ثرثرة فوق النيل. ثم ينتقل الأستاذ بأسرته إلى شقة بحى العجوزة لا يزال فيها حتى الآن. وقد تنقل الأستاذ فى وظائف كثيرة، بدأت بوظيفة فى إدارة الجامعة، ثم تنقل فى مكاتب وزراء الأوقاف تخللها وظيفة مكتبة الغورية، ثم تقلد مناصب هامة فى مجال السينما بوزارة الثقافة، حتى أحيل إلى التقاعد عند بلوغه الستين عام ١٩٧١ .

ولنجيب محفوظ أثر عميق عريض فى ثقافة كل عربى، وقد حظى بمكانة ثابتة فى ميدان الرواية والقصة لم يحظ بها أى روائى عربى آخر، حتى كلل عمله الدؤوب فى ذلك المجال بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨ واتساع شهرته الأدبية إلى أقطار العالم أجمع. من المناسب أن تبنى مصر على هذه الشهرة العالمية ولتلبية الطلب العالمى على المعلومات عن أديبنا الكبير بطرق شتى، منها الاهتمام بتنظيم «طريق نجيب محفوظ» ليكون بندا من بنود السياحة الأدبية التى دعوت إليها فى أول هذا المقال. ويتطلب هذا الاهتمام بكل ما يتعلق بالأستاذ وأعماله من أماكن، بالإضافة إلى اختيار أحد القصور المناسبة كيما يكون مركزا لنجيب محفوظ، يعرض به كل ما يتعلق بحياته وأدبه، ويجد فيه الزوار نسخا من أعماله بكل ما صدرت به من لغات.

وقد صدرت عدة كتب باللغات الأجنبية عن نجيب محفوظ، غير أنه لا يزال هناك كتاب هام أعدته مصورة أمريكية معروفة هى السيدة «بريتالى فا»، التى أعدت كتابا مصورا عن الأماكن المذكورة فى روايات نجيب محفوظ مع نبذ قصيرة عنها. وقد زارت هذه الفنانة نجيب محفوظ عدة مرات، وحصلت منه على مقدمة للكتاب جعل لها عنوانا «كتاب فى الحنين» وهى فى حد ذاتها درة شاعرية يبدى فيها حنينه إلى تلك الأماكن وإعجابه بكتاب السيدة لى فا. وإن عدم نشر هذا الكتاب حتى الآن لهو

خسارة لكل عشاق أدب الأستاذ فى بلادنا وفى الغرب وآمل أن تلتفت إليه أجهزة النشر عندنا خاصة المجلس الأعلى للثقافة الذى بوسعه إصدار طبعة عربية من الكتاب بالصورة المرجوة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة بالنسبة لطبعة اللغة الإنجليزية.

وهذا المقال يجيء لنجيب محفوظ فى شهر مولده، واحتفاءً بأهم كتاب صدر حديثا عن الأستاذ وهو كتاب الأستاذ رجاء النقاش. لقد ألقى ذلك الكتاب أضواء كثيرة على أفكار ومشاعر وحياة الأستاذ بصورة تجعل شخصيته وأدبه تتضح أمام الباحثين والدراسين على نحو شامل ودقيق. و إنى لأعجب للضجة التى أثارتها آراء الأستاذ السياسية، ففى الكتاب آراء ومقترحات أخرى جديرة أيضا بالنقاش والحوار الجادين، وبدلا من ذلك هاجم عدد من النقاد نجيب محفوظ لتلك الآراء التى يختلفون معه فيها، بل وتعدى هجومهم إلى محرر الكتاب دون أن يلتفتوا إلى أنه وعد بكتاب آخر تعليقا على ما جاء بالكتاب الأول، ودون أن يدركوا أن ما ذكره الأستاذ فى الكتاب من آراء سياسية مبثوث بوضوح فى رواياته وقصصه، مثل ثرثرة فوق النيل والخوف والكرنك وتحت المظلة وأمام العرش وغيرها. وإن رد الفعل الذى سببه هذا الكتاب لهو أصدق دليل على أزمة النقد التى يمر بها الأدب العربى الآن والتى نرجو أن ينهض منها فى وقت لا يطول.


البحث


عن


بروست

دائما ما يذكر الكّتاب أن القصة والفن عموما ينحو نحو تقليد ما هو موجود فى واقع الحياة، ولكن حين ينعكس الوضع ويتغير الواقع كيما يطابق خيالاً ورد فى قصة روائية، فإن ذلك يكون هو الغريب الذى يستحق الذكر. وهذا المثال موجود فى شخص الروائى الفرنسى مارسيل بروست (١٨٧١ - ١٩٢٢) الذى أبدع روايته الهائلة «البحث عن الزمن الضائع» التى تحدث فيها ضمن ما روى وقص عن ذكرياته فى البلدة التى كانت تسكنها عائلته فى شمال غرب فرنسا وتسمى «إيلييه» وفى الرواية، لا يقدم بروست البلدة باسمها الحقيقى، بل يخترع لها اسما من عنده هو «كومبرية»، الذى يصبح عنوانا لقسم كبير من المجلد الأول من الرواية، بالإضافة إلى كونه تيمة رئيسية تتردد هنا وهناك كالنغمة الغّلابة فى ذهن راوية القصة طوال المجلدات السبع التى تتكون منها

الرواية الشهيرة. وبعد ذلك، استفادت البلدة من الشهرة التى خلعها عليها الروائى الكبير، فعمدت فى أثناء الاحتفال عام ١٩٧١ بمئوية مولده إلى تغيير اسمها من إيلييه إلى إيلييه كومبريه، سعيا إلى جذب السياح إلى زيارتها والتعرف على الجو الذى رسمه بروست لها فى كتاباته، وكان نتيجة ذلك أن تنافست المحلات التجارية الصغيرة القليلة هناك فى الاستحواذ على اهتمام الزوار الذين يبحثون عن بروست، فالزائر يرى الكثير من تفاصيل الرواية فى عناوين تلك المحلات، وفى العديد من الأماكن التى أصبحت علامات سياحية بارزة أعتمادا على ما ورد عنها فى الرواية.

ورغم أن عالم مارسيل بروست يتركز فى إيلييه- كومبريه حيث يوجد متحفه، فقد ولد فى باريس فى ١٠ يوليو ١٨٧١. ووالده هو الدكتور إدريان بروست الذى أصبح طبيبا ذائع الصيت وتزوج من جان فايل، سليلة عائلة ثرية يهودية الأصل، وأنجبا ولدين هما مارسيل وروبير. وفى حين سار روبير على درب أبيه وأصبح طبيبا هو الآخر، ورث مارسيل خصائص الأم: إرهاف الحس، والخيال المتقد، والهيام بالموسيقى والرسم، وقد ارتبط مارسيل بأمه ارتباطا وثيقا بلغ حد الهوس، وبادلته هى تلك الرابطة الأسرية الوثيقة، حتى أصبح يرى أن أقصى عذاب يمكن أن يقع له هو أن تكون بعيدة عنه أو أن يفقد حبها له. وقد انعكس

هذا التعلق والحب فى روايته فى المشهد الخالد فى أول جزء الذى يصور حالة الراوى وهو صبى إذ لا يستطيع أن ينام قبل أن تحضر إليه أمه وتقبله قبلة المساء.

وقد كانت فترة الصبا لبروست حاسمة فى تكوينه فى المستقبل، إذ انكب على القراءة والتأمل، خاصة عندما تكون الأسرة فى«إلييه» حين تعوّد أن ينزوى فى أى ركن قصى من منزل عمته هناك، أو ينطلق بعد الغداء إلى الحقول، يلتهم الكتب التهاما ويحلم ويحلق فى أجواء الخيال. وكان من بين ما قرأ فى فترة صباه الأولى كتابان كان لهما أكبر الأثر فى إنتاجه فيما بعد، وهما «ألف ليلة وليلة» ورواية جورج إليوت «طاحونة نهر فلوص» وكانت ألف ليلة تلقى رواجا هائلا فى الغرب كله منذ صدورها لأول مرة بالفرنسية عام ١٧٠٤ بترجمة «جالان» الشهيرة. وقد ذكر بروست بعد ذلك أنه قد قرر أن يكتب كتابا فى ضخامة ألف ليلة وليلة واهميتها، على أن يستعيض عن الأحداث المتوالية فيها بالتحليل وبالتفاصيل النفسية الدقيقة للشخصيات التى سيخلقها، على نحو ما فعلت جورج إليوت فى روايتها. ويبين استطلاعان للرأى ملأهما بروست حين كان فى الرابعة عشرة من عمره وفى الثامنة عشرة، على التوالى، أن مؤلفيه المفضلين هم جورج صاند وأناتول فرانس وبيير لوتى وبودلير، وأن أحب الموسيقيين إليه

موزار وبيتهوفن. وثمة إجابة فى الاستطلاع الأول لم يلتفت إليه النقاد ولم يبحثوا فى أصلها، وهى إجابته عن الشخصيات التاريخية التى يفضلها، إذ كان من بينها: النبى محمد، صلى الله عليه وسلم.

ويلتحق بروست بليسيه «كوندرسيه» بباريس، حيث يحصل على البكالوريا عام ١٨٨٩ ويمر بعدها بفترة من النشاط المحموم امتزجت فيها الصداقة بالعلاقات الاجتماعية والتعرف على الشخصيات البارزة. أما من ناحية الدراسات الجامعية، فقد التحق بكلية العلوم السياسية وكلية الحقوق، كذلك دأب على حضور المحاضرات التى كانت تلقى فى جامعة السوربون. ونحن نعرف أنه قد واظب على حضور المحاضرات الفلسفية التى ألقاها هنرى برجسون هناك، وتأثر إلى حد بعيد بآرائه عن الزمن والديمومة ودور الذاكرة، التى ترفد كلها جميع أحداث روايته الكبرى. أما على صعيد النشاط الاجتماعى، فقد تعرف بروست فى تلك الفترة التكوينية من حياته على معظم الشخصيات والأصدقاء الذين اتخذهم بعد ذلك أمثلة للشخصيات التى تزخر بها روايته وبعد الدراسة، واجه بروست عملية صعبة هى اختيار مهنته فى الحياة وهذه أيضا نجدها فى الرواية، حين يتردد فى الرواية مارسيل بين العمل بنصيحة والده الالتحاق بالسلك الدبلوماسى الذى يضمن له حياة محترمة، أو التفرغ للكتابة. وقد اختار بروست أن يصبح كاتبا، وساعده على ذلك توفر دخل مناسب له من والديه، خاصة

والدته، وكذلك سوء حالته الصحية التى عانى منها منذ أن كان فى العاشرة من عمره حين أصيب بحالة شديدة من الربو وضيق التنفس، رافقته طوال حياته وأثرت فى الطريقة التى يقضى بها أيامه، وأدت فى نهاية الأمر إلى وفاته ولما يكد يتعدى الخمسين من عمره.

وهكذا بدأ بروست فى موافاة الصحف الشهيرة بمقالاته التحليلية، ثم أصدر أول كتبه «المباهج والأيام» عام ١٨٩٦، بمقدمة من أناتول فرانس أشهر كاتب فى زمانه، فلقى ترحيبا متواضعا من القراء والنقاد. وبعد ذلك توفر بروست على دراسة أعمال وحياة الكاتب الإنجليزى جون راسكن، وكتب عنه عدة مقالات تعريفية، ثم أخرج ترجمته لكتاب راسكن «إنجيل إميان» الذى يعمر بالتذوق الفنى والمعمارى للآثار الشهيرة وخاصة الكنائس والكتدرائيات الأوروبية. وفيما بين هذين الكتابين، قام بروست بزيارة عدة بلدان أوروبية منها هولندا وفينيسيا، حيث شاهد روائع رسوم المدرسة الفلمنكية ولوحات رمبرانت. ولكن أكثر ما أثر فيه هو الرسام الهولندى «فرمير» وخاصة لوحته «منظر دلفت» وهى المدينة التى عاش فيها الرسام فى القرن السابع عشر. وتتردد فى رواية بروست أصداء تلك الرحلات، ولوحات فرمير الذى كان موضع دراسة يجريها «شارل سوان» أحدا أبطال الرواية الرئيسيين.

ثم يواجه بروست ما بين سنتى ١٩٠٣ و ١٩٠٥ أشد ضربات الحياة إيلاما له، وهى وفاة والده ثم والدته، التى لم يكن يتصور الحياة بدونها. وليس أدل على أثر ذلك فيه من اضطراره إلى دخول مصحة عصبية بعد وفاة الأم، حيث قضى شهورًا عدة للعلاج، وبعد ذلك بدأ فترة عزلته الحادة واستبطانه الذاتى العميق، وهى الظروف التى أحاطت بإخراجه رائعته الكبرى «البحث عن الزمن الضائع» ففى تلك المرحلة، تعمق إدراكه بأنه قد خرج من الجنة التى كانت توفرها له أمه، وأنه قد حان الوقت الذى يعيد فيه خلق تلك الجنة عن طريق وصفها على الورق، ذلك «أن الفردوس الحقيقى الوحيد هو الفردوس المفقود». وانتقل بروست إلى مسكن مستقل، فى تلك الشقة الشهيرة فى شارع هوسمان التى قام بتبطين غرفة نومه فيها بالفلين حتى تعزله تماما عن ضجيج الحياة الخارجية. واشتدت عليه نوبات الربو إلى الحد الذى أصبح معه يقوم الليل، وينام النهار حين تضطرم الحركة ويثور الغبار الذى يؤجج حساسيته المرضية. وساعدته تلك العزلة النسبية على أن يركز كل تفكيره وانتباهه فى البدء فى روايته التى يحكى فيها عن نفسه، عن الزمن الضائع، حيث يصب فيها كل وقع له من أحداث ويصور فيها ما عرف من شخصيات ويصف فيها ما رآه من أماكن. وهو هنا لا يلتزم بالتتابع الزمنى للأحداث، بل

على ما تمده به الذاكرة من وقائع وأفكار تتولد الواحدة فيها من الأخرى، مازجا تداعى الأفكار بالتحليل النفسى بتيار الشعور، على نحو فريد جعل من روايته إحدى درر القصص فى القرن العشرين.

وقد ترك له أبواه ثروة كبيرة أتاحت له أن يتفرغ للكتابة، وأن ينفق عن سعة على نفسه وخدمه، وفى سبيل جمع المادة اللازمة للرواية. وهكذا بدأ أخيرا فى تسطير الكتاب الذى سيخلد اسمه، وانتهى من جزئه الأول «طريق سوان» عام ١٩١٣. وحين رفضها الناشرون، ومنهم «أندريه جيد»، فى دار «نوفيل ريفيو» أقدم بروست على طبعها على نفقته الخاصة. وبعد صدور الكتاب، وإدراك النقاد لمدى قيمته، أعادت النوفيل ريفيو النظر ووافقت على نشر بقية الأجزاء ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى عطل النشر، فلم يخرج الجزء الثانى بعنوان «فى ظلال الصبايا المتجملات بالأزهار» إلا فى نوفمبر ١٩١٨ مع إعلان نهاية الحرب. وقد شن المعجبون ببروست وكتابه حملة كبيرة أدت إلى حصول الكتاب على جائزة الجونكور وهى أسمى الجوائز الأدبية فى فرنسا. وتوالى بعدها صدور الأجزاء الأخرى، والرواية تتضخم يوما بعد يوم نتيجة الإضافات السابغة التى يمليها بروست عند مراجعته الأصول الطباعية. فصدر الجزء الثالث «طريق جيرمانت» عام ١٩٢٠ والجزء الرابع «سدوم وعمورة» عام ١٩٢٢

أما بقية الأجزاء فلم تصدر إلا بعد وفاة المؤلف فى ١٨ نوفمبر ١٩٢٢ وهى: «السجينة» (١٩٢٣) و «اختفاء ألبرتين» (١٩٢٥) ثم الجزء الأخير «الزمن المستعاد» (١٩٢٧).

وكان بروست قد انتقل من شقة شارع هوسمان إلى مسكن آخر بشارع «هملان» وهو الذى شهد سنواته الأخيرة القاسية وهو يصارع المرض ويسابق الزمن حتى ينتهى من آخر جزء فى الرواية، ويصور فيه حالته حين أدرك أن مهمته فى الحياة أن يصير كاتبا يضع كل حياته بين دفتى كتابه الحافل. ولما كان لا يستطيع العمل إلا ليلا، ويغمره القلق ألا تمهله الحياة الفرصة لإكمال كتابه الضخم، فقد مثل حاله بحال شهرزاد التى تعرف كل ليلة إذا كان السلطان شهريار سيمنحها مهلة كيما تكمل قصصها على مدى ألف ليلة وليلة.

هذا هو الكاتب الذى سطّر روايته بدماء قلبه وضحى بحياته فى سبيل إكمال كتابه. بيد أن محبى بروست لابد أن يضيفوا إلى قراءة الرواية التعرف على عالمه بزيارة بلدته كومبريه والتجول فى متحفه وهو أصلا منزل «العمة ليونى» الذى كانت العائلة تنزل فيه عند زياراتها المتكررة للبلدة. ويتعرف الزائر على غرفة الطعام والمطبخ الذى كانت تعمره الخادمة «فرانسواز» فى الطابق الأرضى. ثم يصعد إلى الطابق الثانى ليرى غرفة مارسيل الصغير

التى بدأت الرواية فيها، ثم غرفة العمة ليونى حيث تذوّق مارسيل كعكة «المادلين» مع رشفة شاى بالليمون؛ وهى الذكرى التى استعادها الراوى بعد ذلك فأعادت إلى ذاكرته بلدة كومبريه بأحداثها وكنيستها وسكانها بمن فيهم شخصيات القصة خاصة سوان وآل جيرمانت.

وبروست معروف جيدا لدى القراء والأدباء العرب، وروايته وأسلوبه القصصى ضروريتان لازمتان لكل من أراد أن يسير فى درب الرواية. وقد ذكر الأستاذ نجيب محفوظ أنه يحمد الله على أنه قد قرأ رواية بروست فى إبان الشباب كيما يحتمل طولها وصعوباتها. وقد قام الدكتور نظمى لوقا بترجمة الجزء الأول من الرواية وصدر ضمن مطبوعات كتابى بعنوان «غرام سوان» وترجمته سلسة مطواعة، وإن كانوا قد أخذوا عليها حذف الكثير من العبارات والأوصاف. ولهذا فقد صدرت ترجمة جديدة للأستاذ إلياس بديوى بالتعاون مع قسم الترجمة فى البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون بالقاهرة، وهى ترجمة كاملة وأمنية، وإن كانت قد ضارعت الأصل فى صعوبته وشدته على القارئ. وبالترجمة بعض الإبهام، زادت فيه اللغة التى لم يألفها القراء المصريون، وهوما يحملنا إلى الدعوة إلى الإتفاق بين المترجمين على مستوى العالم العربى على طريقة لتوحيد ترجمة أسماء الأعلام بالعربية

حتى لا يزداد القارئ حيرة وبلبلة ومن المناسب أن تضطلع منظمة الثقافة العربية بمثل هذا المشروع حتى لا يكون أمامنا عشرة طرق لنقل اسم واحد من لغته الأصلية، وهو ما يحدث الآن للأسف الشديد.

فنان ثورى
ومأساة أمريكية

فى فبراير ١٩٣٤، أمر نلسون روكفلر، المليونير الأمريكى المعروف، بتحطيم لوحة جدارية يربو حجمها على ألف قدم مربع من رسم أشهر فنان مكسيكى، دييجو ريفيرا، وتدميرها بالكامل. وكانت هذه الواقعة مأساة فنية بمعنى الكلمة، تمثلت فى ضياع عمل فنى هائل، لفنان أصبحت لوحاته الآن تباع بملايين الدولارات، وأصبح يمثل، مع زوجته، فريداكاهلو، الأساس الرئيسى الذى تقوم عليه السياحة الفنية فى المكسيك، إذ أن أعمالهما تنتشر فى خمسة متاحف مختلفة فى مكسيكو سيتى وضواحيها.

وتبدأ قصة هذه المأساة، أو الفضيحة الفنية، حين قرر الرأسمالى الأمريكى أن يزين البهو الرئيسى لأحدث مبانيه فى الشارع الخامس بنيويورك، والذى يشكل الآن جزءاً من مركز روكفلر،

بلوحة من صنع أحد أشهر الرسامين المعاصرين له. وبعد اتصالات بكبار الرسامين، بابلو بيكاسو وهنرى ماتيس ودييجو ريفيرا، تم الاتفاق مع الأخير على إنجاز اللوحة مقابل ٢١ ألف دولار، وهو مبلغ ضخم آنذاك والآن. وكان الموضوع الذى اختاره روكفلر عنوانه: «الإنسان فى مفترق الطرق»، يتطلع بأمل ورؤيا سامية لاختيار مستقبل جديد أفضل. وفى مارس ١٩٣٣، بدأ الفنان العمل مع رهط من المساعدين الذين يتطلبهم عمل الجداريات الضخمة؛ ووصلوا الليل بالنهار كيما ينتهوا من اللوحة قبل أول مايو من نفس العام، وهو التاريخ المحدد لافتتاح المبنى الشاهق الجديد. ولكن، مع متابعة وسائل الإعلام للعمل وتطوره، بدأت تكتب عن مشكلة فيه، وهى أن ريفيرا رسم فى جزء من الجدارية وجه لينين! وسرعان ما تلقى الفنان طلبا من روكفلر برسم وجه آخر مكانه. وبعد تفكر وتأمل، رد ريفيرا بأن رفض أى جزء من اللوحة هو رفض لمفهومها بكامله؛ وعرض أن يضيف فى المقابل وجوه بعض الشخصيات الأمريكية البارزة ومنهم ابراهام لنكولن وهنرييت بيتشر ستاو. وبعد يومين من الصمت المريب، تم حصار المكان بقوات من الشرطة والخيّالة، وطلب مندوب المليونير الأمريكى إلى ريفيرا التوقف عن العمل ومغادرة المكان، وقدم له شيكاً بكامل أتعابه التى سبق الاتفاق عليها. ومع صيحات الانتقاد

لهذا الحدث من جانب الفنانين الأحرار، اكتفى روكفلر فى البداية بتغطية اللوحة كلها بالقماش، ثم أمر بعد عام بتحطيمها وتدميرها تماماً. ويعتبر هذا من أكبر أعمال التخريب الفنى فى التاريخ الحديث.

ولم تكن تلك الحادثة بفريدة فى حياة رسامنا، ذلك أن الكثير من الجدال والمشاكل صاحبت معظم أعماله الهامة، على نحو ما سنوضحه فيما بعد. وقد ولد ريفيرا فى ديسمبر عام ١٨٨٦ فى مقاطعة جوانا خوانو بالمكسيك، وانتقل مع أسرته إلى العاصمة وهو فى السادسة من عمره. وتبدى حبه للرسم منذ صباه، فالتحق بكلية الفنون الجميلة «أكاديمية سان كارلوس»، وتلقى علومه الفنية ومرانه على أيدى الأساتذة المشهورين فى بلاده. ولفت ريفيرا الانتباه إلى موهبته منذ دراسته فى الأكاديمية، فاشترك عدة مرات فى معرضها السنوى. وتشرب الفنان فى دراسته أصول الفن المكسيكى الأصلى فى فترة ما قبل الاستعمار الإسبانى، وقد تركت فى نفسه بذرة ستنمو وتترعرع فى مرحلة لاحقة من حياته. ثم يحصل على منح دراسية متتالية تتيح له السفر إلى إسبانيا والتجول بين ربوعها، ثم إلى فرنسا وبلجيكا وانجلترا وإيطاليا، على مدى سنوات عديدة. ويتعرض ريفيرا فى سنوات الغربة تلك إلى التيارات الفنية التى كانت تموج بها أوروبا آنذاك، وخاصة فى

إسبانيا وفرنسا التى يقيم فيها معظم سنوات غربته. وفى إسبانيا، يقضى وقته فى متحف البرادو دارساً لوحات جويا وفيلاسكيز والجريكو وناقلا لها، وهو يزعم فى مذكراته أن بعضا من النسخ التى تدرب على عملها للوحات قد بيعت بعد ذلك بوصفها أصلية!.

وأول طابع غلب على لوحات ريفيرا كان الطابع التكعيبى، وأنتج معظمها فى عام ١٩١٣ وقد تعرف على بيكاسو فى باريس، وأعجب بيكاسو برسومه وكان يصطحب أصدقاءه من الشعراء والرسامين إلى استوديو ريفيرا ليريهم لوحاته، مما رفع أسهم فناننا فى ميدانه. إلا أن علاقة ريفيرا بالتكعيبية لم تطل، حين تحقق أن كل هذه الابتكارات والتجديدات لا علاقة لها بالحياة الواقعية، وأخذ يسعى جاهداً فى البحث عن أسلوب خاص فى الرسم يحقق من خلاله مشاعره الدفينة. وبعد أن قضى فترة فى أحضان ما بعد الانطباعية، متأثراً خطى سيزان، اكتشف أخيراً فى أعماقه كنزاً فنية لا يفنى من تراث بلاده التاريخى فى مختلف معالمه، وهو تراث غنى يتيح للفنان الأصيل أن يخلق فن للجماهير العريضة من الشعب، إذ يصورهم وهم يعملون ويقاسون ويحاربون ويمرحون ويعيشون ويموتون. وهو يقول عن لحظة الكشف تلك: «لقد وُلد أسلوبى كما يولد الأطفال، فى لحظة، باستثناء أن هذا الميلاد قد جاء بعد فترة حمل عويصة مقدارها خمسة وثلاثون عاماً». وقد

تواكب اكتشافه ذاك مع اندلاع الثورة الشعبية المكسيكية وظهور زاباتا وبانشو فيلا ورفاقهما، الذين أقاموا حكم الشعب فى البلاد، وقد توجه ريفيرا إلى المكسيك فى تلك الفترة ليعايش تلك الأحداث ويشترك فيها، وشهدت تلك الفترة كذلك قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، والتى تعاطف ريفيرا تعاطفاً كاملاً مع أهدافها ومبادئها.

وهكذا يعود الفنان إلى وطنه عودة نهائية فى عام ١٩٢٩ كى يضع نظريته الفنية موضع التنفيذ. وكان أول عمل له هو إنجاز لوحة جدارية لمبنى المدرسة التجهيزية القومية بعنوان «الخلق» على مساحة ألف قدم مربع. وتوالت المهام بعد ذلك، ومنها جدارية وزارة التعليم بعنوان «الرؤيا السياسية للشعب المكسيكى» التى يعرض فيها لوحات نابضة تصور جوانب هامة فى تطور الوعى القومى للشعب على مدار تاريخه الطويل؛ ثم جدارية المدرسة القومية للزراعة، المعنونة «أغنية للأرض وزارعيها ومحرريها». وعهد إليه بعد ذلك رسم جداريات أهم مبنى فى العاصمة وهو «القصر القومى» فأعد له سلسلة من اللوحات بعنوان «تاريخ الشعب المكسيكى»، وهو يعدها أفضل أعماله، وقد باشر رسمها خلال فترة طويلة تخللتها أعمال أخرى وسفرات وزيارات إلى الخارج، بل إنه عاد إليها عام ١٩٥٥ ليضع آخر لمساته وتعديلاته. وهذه المبانى الأربعة تشكل الآن جزءاً هاماً من

الزيارات الفنية التى تنظمها شركات السياحة لزوار المكسيك، ويستبين فيها الخط المميز الذيى ابتدعه ريفيرا وأصبح معروفاً به منذ ذلك الوقت. وقد تزوج ريفيرا فى تلك الأثناء من إحدى موديلاته وهى لوبى مارين، وهى الوحيدة من بين زوجاته الثلاث التى أنجب منها ابنتيه لوبى وروث.

وقد جذب ريفيرا بفنه الرفيع انتباه الأثرياء من الأمريكان الذين إتجهوا إلى الفنون لموازنة حياتهم المادية الصرف، فتلقى عروضاً للعمل فى الولايات المتحدة، أهمها رسم جداريات مبنى بورصة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا. وسافر الفنان بصحبة زوجته الثانية فريدا كاهلو فى نوفمبر ١٩٣٠، وأنجز عملاً رائعاً سماه «قصة كاليفورنيا»، ووضع فى اللوحة ثلاث من الشخصيات الشهيرة فى الولاية، منهم «هيلين مودى» التى حازت بطولة التنس الدولية فى تلك الآونة. وقد أثار هذا الإختيار غضبة أهل كاليفورنيا الذين قالوا أن ولايتهم أكبر من أن تُمثّل على هذا النحو. وكانت مجابهة انتصر فيها الفنان وبقت اللوحة كما أرادها. ثم رسم جدارية أخرى لكلية الفنون الجميلة فى سان فرانسسكو أيضاً، أثارت له مشكلة جديدة حين صور فيها الرسامين على السقالات يرسمون على الجدار، وصور نفسه من الخلف جالساً على السقالة يرسم معهم. واتهمته الصحافة بأنه تعمد أن يدير ظهره لأهل أمريكا احتقاراً لشأنهم!.

ولكن ذلك لم يمنع الأمريكيين من الإعجاب بالفن الذى يقدمه، فكان أن دعاه متحف الفن الحديث بنيويورك إلى إقامة معرض خاص بأعماله، وهو ما تم فعلاً، وكان ريفيرا ثانى فنان يقيم له المتحف معرضاً خاصاً منذ افتتاحه عام ١٩٢٩ . وبعد ذلك، أسند إليه الصناعى الرأسمالى الشهير فورد تزيين معهد دترويت للفنون بلوحات جدارية. وكان نتيجة ذلك جداريته التالية وهى «الإنسان والآلة»، وتتكون من ٢٧ لوحة يصور فيها ثلاثة موضوعات رئيسية، الأول: العامل فى المصنع؛ والثانى: الآلات فى عملها؛ والثالث: الثروات الطبيعية والبشرية فى المنطقة. وكان من بين الرسوم العديدة مناظر وجد فيها المتربصون بالفنان الثورى الأجنبى عنهم فرصتهم المنشودة، إذ اتهموه بالإباحية والتجديف والقبح الفنى، وطالبوا بإزالة اللوحات على الفور. وفى المقابل، هب المدافعون عن الفنان إلى تعضيده، بل أن عمال المصانع شكلوا فيما بينهم فرقة تتناوب حراسة اللوحات من أى محاولات تخريبية. ولم تهدأ الضجة إلا بإصدار المليونير فورد بيانا يدافع فيه عن ريفيرا ولوحاته.

بيد أن العاصفة التالية كانت للأسف مناوئة للفنان، وهى قضية أحد مبانى «روكفلر سنتر» التى جرى ذكرها فى أول المقال والتى انتهت نهاية مأساوية، ونتج عنها أن ألغت شركة جنرال موتورز

عقداً كانت قد عهدت بموجبه لريفيرا أن يزين بلوحاته مبناها الرئيسى فى شيكاغو، وتقطعت بذلك علاقة الفنان بأمريكا لفترة طويلة. ولكن ريفيرا العنيد انتقم لنفسه بعد ذلك، إذ أعاد رسم اللوحة نفسها بوجه لينين فى إحدى جوانب القصر القومى بالمكسيك حين عاد لإكمال عمله فيه بعد عودته من أمريكا، وعمد إلى إضافة وجه جون روكفلر - عميد العائلة - إلى مشهد الكاباريه الذى تضمه الجدارية! وقد شهدت بقية سنوات الثلاثينيات عدداً من الأعمال التى أنجزها الفنان فى بلاده، أشهرها لوحة من جدارية جعل موضوعها «الدكتاتور»، وهو موضوع حرص كل فنانى أمريكا اللاتينية على تقديمه فى أعمالهم، بمن فيهم القصاصون المشهورون كأستورياس الجواتيمالى وماركيز الكولومبى وأليخو كاربنتييه الكوبى؛ وجاءت لوحة ريفيرا تعبيراً تشكيليا يماثل ما عبّرت عنه روايات هؤلاء القصاصين.

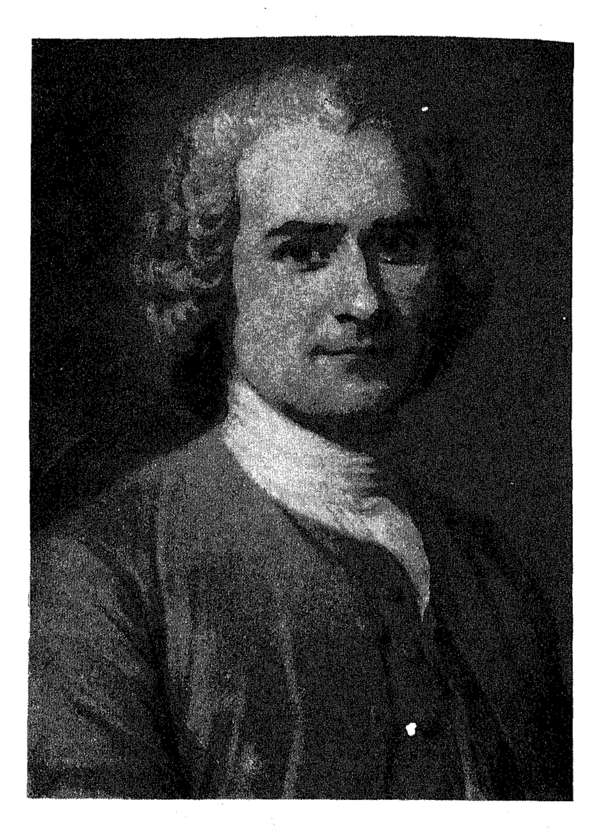
وشهدت تلك الفترة أيضاً مشاكل صحية وزوجية لفريدا كالهو، وأكبت إزدهارها الفنى الذى أثمر فى دعوتها للعرض فى باريس، حيث احتفى بها كانديسكى وديشامب وبيكاسو، ثم فى نيويورك. وتبع ذلك عودة ريفيرا إلى أمريكا، حين قامت السلطات المكسيكية بالزج به ظلماً فى محاولة اغتيال تروتسكى الذى كان لاجئاً سياسياً بالمكسيك (والذى تم اغتياله بالفعل بعد ذلك)، إذ اضطر

الفنان إلى الخروج إلى المنفى، بمساعدة أصدقائه، والتوجه إلى سان فرانسسكو التى يعرفها جيداً من قبل. وأنجز ريفيرا عدداً من الأعمال هناك مرة أخرى؛ ثم عاد إلى بلاده بعد أن تغيرت الأحوال السياسية وإستأنف عمله فى لوحات «القصر القومى» وفى العديد من الجداريات الأخرى واللوحات الخاصة، ومنها لوحة الغلاف لديوان بابلو نيرودا الملحمى «النشيد الشامل»، وهى لوحة تصور حضارة المكسيك القديمة، ويستبين فيها بوضوح تأثر ريفيرا بالرسوم الفرعونية فى مصر القديمة وتعيد إلى الأذهان أوجه الشبه التى يشير إليها العلماء بين الحضارة الفرعونية وحضارة المكسيك القديمة.

ولم يسلم ريفيرا من الهجوم على أعماله حتى فى بلاده، غير أنه كان يقف صامداً دون أن يضحى بأمانته الفنية وحريته فى التعبير حتى آخر يوم فى حياته. والآن، وبعد وفاة الفنان العظيم فى ٢٤ نوفمبر ١٩٥٧، تتوزع آثاره بين أربعة أماكن فى العاصمة المكسيكية وحدها، فبالإضافة إلى جدارياته العديدة التى يزورها السياح وأهل الفن فى كثير من المبانى العامة، هناك متحف دييجو ريفيرا، واستوديو ريفيرا، ومتحف الفن الحديث، ثم المتحف الذى شيده الفنان على نفقته الخاصة وصرف عليه كل ما كسبه من مال، ويتضمن نماذج لفن السكان الأصليين فى المكسيك

وحضاراتها القديمة قبل الاستعمار الإسبانى. وكانت وصية ريفيرا مرآة لوطنيته وحبه الأصيل لبلاده، إذ أوصى بكل ما ترك من لوحات وجداريات لشعب المكسيك، وهو ما يفسر كثرة المتاحف الخاصة به فى بلاده، إلى جانب الأعمال الأخرى التى تزهو بها المتاحف العالمية.


الشريد الذى
أصبح رائداً
للحرية والتنوير



جان چاك روسو

إن قلـتَ قصاصـاً صدقت، وإن قلـت مُصلحـاً اجتماعيـاً، أو فيلسوفاً، أو ثائراً، أو موسيقاراً، فقد صدقت فى كل ذلك أيضاً. ذلك أن جـان جـاك روسو قد جـمع كل هذه الصـفـات والأعـمـال خلال حياته الخصبة التى امتلأت بفترات متناقضة من السعادة والشقاء، والشهرة والاضطهاد، والاستقرار والتشرد، بل وأشرفت به فى نهاية الأمر إلى حافة الجنون. وقد منحه التاريخ ما حرمته منه الحـيـاة، وهو الاعـتـراف به رائداً من رواد الحـرية فى كل زمـان ومكان، منذ أن اعترفت به الثورة الفرنسية بوصفه واحداً من الذين مـهدوا لقيامـها بما ترك من تراث فكرى. وروسو يتنازعـه بلدان، سويسرا وفرنسا، إلا أنهما يتعاونان معاً فى سبيل الإبقاء على آثاره، وإنشاء المتاحف فى المناطق التى عاش فيها. فسويسرا مثلاً هى التى قدمت الأموال اللازمةلإقامة متحف روسو فى «مونمرنسى»

التى تقع فى قلب فرنسا، بيد أنها كانت تسهم أيضاً بذلك فى إحياء ذكرى هذا المواطن «الجنيفى» الشهير.

ذلك أن روسو قد ولد أصلاً فى جنيف بسويسرا فى ٢٦ يونيو ١٧١٢، ومنزل مولده هو أول أثر يزوره من يسير على خطاه، ولكنه ليس متحفاً، وكل ما به لوحة تشير إلى أن جان جاك روسو قد ولد فى هذا البيت. وقد قضى طفولته فى كنف أبيه بعد وفاة أمه عند ولادته؛ وقد علمّه أبوه ـ صانع الساعات والقارئ النهم ـ حب القراءة ومطالعة الكتب، وكانا يقضيان أوقاتا طويلة يقرآن معاً. وكان أكثر ما اهتم به الصبى كتاب بلوتارك عن حياة العظماء، بالإضافة إلى الروايات القصصية التى كانت شائعة آنذاك، الأمر الذى غذى فكره وشحذ خياله. وقد اضطر الأب إلى هجر موطنه نتيجة لشجاره المتكرر الذى أوقعه فى مشاكل قانونية، وترك ابنه لدى خاله الذى ألحقه بالعمل والتدريب لدى أحد نقاشى المعادن، ولكن قسوة الظروف هناك دفعته إلى الهرب. وكان ذلك بداية عهد التشرد وعدم الاستقرار الذى ظلل حياته كلها، عدا فترات معينة حين أقام فى «شامبيرى» ثم فى «مونمرنسى»، وهما المكانان اللذان أقيم فيهما بعد ذلك أهم متاحف روسو. وقد هجر روسو مدينة جنيف، وسار على قدميه ضارباً فى منطقة «سافوا» على جانبى سويسرا وفرنسا، مفتوناً بطبيعتها ومغانيها الساحرة. وقد ساقته الأقدار إلى مدينة «آنسى» الفرنسية كى يلتمس معونة

مدام فارانس التى سمع عن حدبها على الفقراء والمساكين وجهودها لمساعدتهم. وبعد أن قابلها، وجهته إلى الذهاب إلى تورينو، فى إيطاليا حاليا، ليبنى مستقبله هناك مزوداً بتوصياتها. ولكنه يتشرد مرة أخرى متنقلاً من تورينو إلى ليون ثم لوزان ونيوشاتيل إلى باريس. ولم يجد بدا من العودة فى النهاية إلى راعيته مدام فارانس فى مقرها بمدينة شامبيرى، ومن ثم أقام فى دارها هناك. وكانا يقضيان الصيف والعطلات فى دار خارج المدينة تقع فى أحضان الطبيعة وسط الغابات والحقول وهى الدار المسماة «لى شارميت». وشكلت تلك الفترة المحطة الأولى من فترات استقرار جان جاك روسو، حيث قضى هناك ما يربو على سبع سنوات من السعادة والاستقرار وبداية الانتاج الفنى. ويذكر لنا روسو فى اعترافاته الشهيرة كيف توفر فى تلك الفترة على دراسة الموسيقى وتعليمها لمن يرغب من الأسرات الصديقة لراعيته، كما تعلم التلحين وتأليف الأغانى فى نفس الوقت، بالإضافة إلى استمراره فى قراءة كل ما يقع فى يديه من كتب. وأتاحت له إقامته فى صحبة مدام فارانس التعرف على علية القوم فى المنطقة، مما أثار خوف راعيته من وقوعه فريسة لأحابيل النساء من حوله، وانتهى الأمر بها أن قدمت له نفسها حماية له من الغواية!

ودار لى شارميت هى الآن من متاحف روسو الهامة، وتقع خارج مدينة شامبيرى فى وسط شرق فرنسا. والدار مؤثثة على

الطراز الذى كان سائداً فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر، أى بعد الزمن الذى كان روسو وراعيته يعيشان فيها، إلا أنه تعطى للزائر فكرة واضحة عن حياة الكاتب فيها والتعرف على حجرته هناك. وتقع وراء الدار حديقة واسعة يرى فيها الزائر نفس النباتات التى كانت موجودة أيام روسو والتى استرعت انتباهه فأخذ يدرسها ويقرأ عنها حتى أصبحت معرفته بها فى مستوى المتخصصين إلى حد أنه كان يتراسل مع علماء النبات المشهورين فى عصره لتبادل الخبرة والمعلومات.

ولكن فترة استقرار روسو الأولى انتهت حين وجد برودا من مدام فارانس تجاهه، فعقد العزم على أن يبدأ جهوده العملية بنشر إنتاجه فى ميدان الموسيقى، فتوجه إلى باريس حاملا معه طريقة جديدة ابتكرها لتدوين النوتة الموسيقية، ونجح عن طريق خطابات التوصية التى تزود بها فى الوصول بمؤلفه إلى الأكاديمية الفرنسية. وناقشه أعضاء الأكاديمية فى مشروعه الجديد، بيد أنهم رفضوه على أساس تعقيده وعدم صلاحيته للتطبيق. ويعزى روسو فى اعترافاته ذلك الرفض إلى أن مشروعه قد عرض على علماء «لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى». وبعد هذا الفشل، نجح فى الالتحاق بالعمل سكرتيراً لسفير فرنسا فى البندقية (فينيسيا)، ورحل إلى هناك حيث قضى عاماً هناك فى شقاق

متواصل مع السفير. وترك العمل فى السفارة وعاد إلى باريس يعمل فى تدريس الموسيقى ونسخ النوتات الموسيقية بالأجر. وفى تلك الأثناء، تعرف فى الفندق الذى كان يقيم فيه على إحدى عاملاته وهى «تيريز ليفاسير» التى عاشت معه بعد ذلك طوال حياته. وثابر روسو على تآليفه الموسيقية، وحقق فى ذلك الميدان نجاحاً لا بأس به، ووصل الأمر إلى وضعه أوبرا بعنوان «عراف القرية» لاقت نجاحاً فى البلاط الملكى.

ثم تقع لروسو أهم أحداث حياته، حين كان يتصفح جريدة «مركير دى فرانس»، وطالع فيها إعلاناً عن مسابقة يجريها المحفل العلمى لمدينة «ديجون» لتأليف مقالة موضوعها «هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تقدمها؟». وحين قرأ هذا العنوان انتابته شبه غيبوبة - أو بحران بلغة الدكتور لويس عوض - أتاه خلالها الإلهام بنقاط المقال الذى اعتزم التقدم به للمسابقة ويفوز مقاله بالجائزة عام ١٧٥٠، فعمل ذلك إلى ذيوع اسمه فى الأوساط الفكرية والعلمية، كما كان حافزا له إلى السعى قدماً فى طريق التأليف الفكرى والثقافى، فكتب مقالات أخرى أهمها بحث عن أسباب عدم المساواة بين البشر. وتعرف بعد ذلك إلى الفيلسوف «ديدرو» الذى كان يعمل على إصدار دائرة المعارف، وهى أول موسوعة فرنسية، فشارك روسو فيها بوضع

الباب الخاص بالموسيقى. وتعد تلك الموسوعة الشهيرة نقطة الإرتكاز لعملية التنوير فى فرنسا وساهمت فى إذكاء العقول وإرهاف المشاعر فى طريق قيام الثورة الفرنسية.

وساعد ذيوع صيت روسو إلى تهافت علية القوم على معرفته، وفُتحت أمامه أبواب الصالونات. وكان من بين من تعرف بهم مدام «دى بينيه» التى نجحت فى حمله على العدول عن خطته بالتوطن مرة أخرى فى جنيف بعد أن عاد إلى الحصول على جنسيته فيها والعودة إلى المذهب الكالفنى. وجهزت مدام دى بينيه مسكناً صغيراً له وتيريز وأمها، ملحقاً بضيعتها الكبيرة بجوار غابات مونمرنسى، وأطلقوا على المسكن اسم «الصومعة» (الإرميتاج). وكان المكان ملائماً تماماً لروسو للتأمل والتفكير فى مشروعات الكتب التى كان بصدد وضعها. ويقول عن ذلك فى اعترافاته: «لقد أمدتنى هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير فى نزهاتى اليومية؛ إذ أننى لا أستطيع التفكير إلا وأنا أمشى، فما أن أقف حتى أكف عن التفكير، فليس فى وسع عقلى أن يتحرك إلا مع قدمى». وكان قرار روسو بالابتعاد عن باريس حيث جل أصدقائه من الكتّاب والفلاسفة والإقامة فى الريف هو منشأ النزاع بينه وبينهم، والذى تطور إلى شجار علنى تطير فيه الإشاعات وتتبادل بشأنه الرسائل، مما يملأ نفس فيلسوفنا

بالهواجس والشكوك التى تقوده إلى البارانويا، وهى عقدة الإحساس الشديد بالاضطهاد. وقد مكث فى الصومعة ١٨ شهراً بدأ فيها فى وضع الخطوط الرئيسية لأهم مؤلفاته القصصية والفكرية والتربوية، ونعنى بها رواية هلويز الجديدة وكتاب إميل أو التربية، ثم كتاب العقد الاجتماعى. وقد استلهم مادة روايته الشهيرة من الغرام العنيف الذى أحسه تجاه الكونتيسة «صوفى دى إديتو»، التى وقع فى هواها وأحبها حباً رومانسيا ملك عليه فؤاده. ثم ينشأ الخلاف بينه وبين مدام دى بينيه، التى يتوهم أنها تساعد «أعدائه» فى باريس لبث الفرقة بينه وبين تيريز وأمها، بالإضافة إلى ذيوع خبر حبه للكونتيسة دى إديتو، فيترك الصومعة إلى منزل آخر فى مونمرنسى أيضاً، وهو المنزل الذى سيصبح المحل الرئيسى لمتحف روسو الآن. وقد قضى فى هذا المنزل زهاء الخمس سنوات تشكل فترة الاستقرار الثانية والأخيرة فى حياته المضطربة.

ومتحف روسو فى مونمرنسى، ويسمى مبناه «مون لوى» منذ كان روسو يقيم فيه، يضم طابقين مليئين بآثار وتذكارات الفيلسوف العظيم. ففى المدخل، نرى البارومتر الذى كان يعتمد عليه روسو فى معرفة أحوال الطقس كيما يحدد أوقات نزهاته الخلوية أو عمله فى خارج البيت؛ ثم تمثالاً نصفيا من صنع المثّال «هودون». وكان الطابق الأول مخصصاً لتيريز وغرفة الطعام

والمطبخ، أما الطابق العلوى فكان مخصصاً لغرفة نوم روسو، ونرى فيها سريره، وغرفة مكتبه التى لايزال بها المنضدة التى كتب عليها رواية هلويز الجديدة. كما نرى فى الخارج المقعد والنضد الحجريين اللذين اعتاد الكاتب العمل عليهما حين يسمح الطقس بذلك. ويضم المتحف أيضاً المخطوطات والطبعات النادرة لكتبه. وقد شيد حديثاً ملحق لهذا المبنى خصص كمركز لدراسات وأبحاث القرن الثامن عشر.

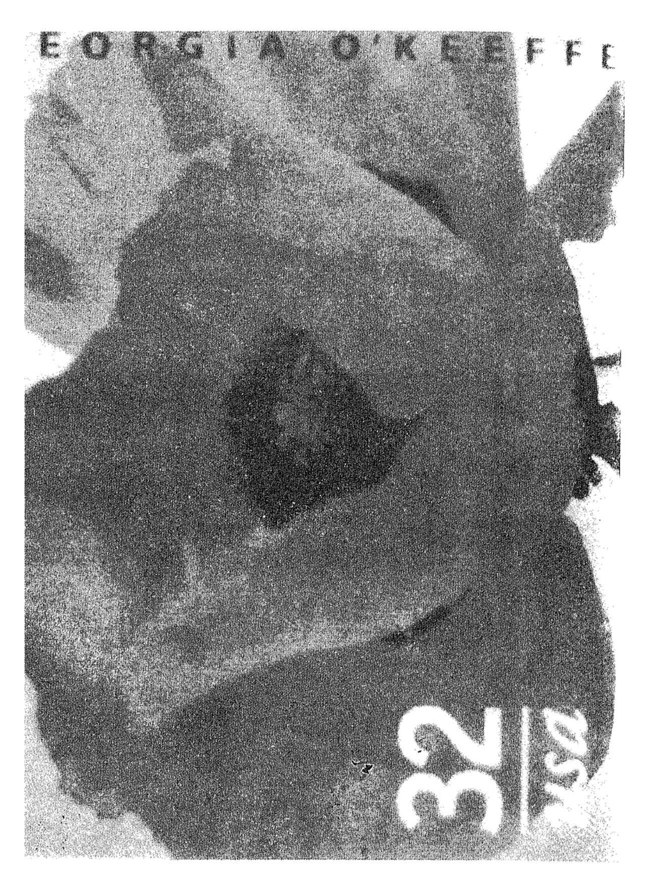
ورغم أن روسو قد أقام مجده بتلك المؤلفات الثلاثة التى أنجزها فى مونمرنسى، إلا أن أفكاره الثورية فى إميل والعقد الاجتماعى أثارت عليه السلطات فى فرنسا وفى سويسرا، فهام شريداً من أوامر القبض عليه ومصادرة كتبه وإحراقها. وكثيراً ما كان الناس يقذفون مسكنه بالحجارة حتى يجبروه على الرحيل عن مدينتهم. واضطر آخر الأمر إلى قبول ضيافة الفيلسوف الإنجليزى هيوم له عام ١٧٦٦، فسافر إلى إنجلترا وأقام فى منزل هيوم حيث بدأ فى تسطير كتابه الشهير «الاعترافات». ولكنه عاد إلى فرنسا بعد عام واحد إذ أنه تشاجر مع مضيفه كعادته. وقد قضى سنواته الأخيرة فى باريس أو بالقرب منها، يرد على المؤامرات التى كان يتوهم أن أصدقاءه يحيكونها ضده، ونتج عنها آخر كتاب له وضعه إبان تجولاته فى ضواحى باريس وهو بعنوان «أحلام جوّال منفرد» وهو

بمثابة خاتمة مؤسية مريرة لقصة حياته التى سطرها فى أشهر مؤلفاته وهى الاعترافات.

وقد قامت آراء روسو الفكرية والسياسية على دعامتين أساسيتين هما الطبيعة والحرية. فهو يرى أن العودة إلى الطبيعة فيها الخلاص من كل الشرور الاجتماعية، كما أن العدل الاجتماعى والحرية هما أساس المجتمع السليم. وقد افتتح كتاب العقد الاجتماعى بتلك العبارة التى ذهبت مثلاً: «لقد ولد الانسان حراً، ومع ذلك فهو يرسف فى الأغلال فى كل مكان». واللافت للنظر هو تناقض حياة روسو مع ما يبشر به من أفكار سامية، فهو يروى فى إعترافاته بلا مواربة الكثير من المثالب الأخلاقية، كالسرقة والعلاقات الغرامية، وأيضاً أشد ما عابه عليه نقاده، وهو عدم إحتفاظه بأطفاله الخمسة من تيريز ليفاسير، إذ كان يودعهم الملاجىء أولاً بأول، مبررا ذلك بشتى المعاذير والحجج الواهية.

وقد توفى روسو فجأة فى ٢ يوليو ١٧٧٨ وسط أحزانه. ولكن التاريخ لا ينسى أبناءه العظام؛ فبعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، نقل الثوار رفاته فى إحتفال شعبى مهيب إلى «البانتيون»، مثوى الخالدين فى باريس فى عام ١٧٩٤ حيث هو الآن يتوافد الزوار عليه ليكون ذلك آخر مراحل السير على خطى هذا المفكر الخالد.

رسامة أمريكا الأولى



لوحة زهرة الخشخاش على طابع بريد أمريكى

ربما كانت أشهر الرسامات الأمريكيات قاطبة هي تلك السيدة النحيلة التي عمّرت حتى أشرفت على المائة سنة دون أن تكف عن الرسم، وهي «جورجيا أوكيف» التي يكاد لا يخلو بيت أمريكي من نسخة من لوحتها المشهورة «زهرة الخشخاش الحمراء». ورغم أنها قد تنقلت بين عدة ولايات أمريكية مختلفة، فقد ارتبط اسمها بصفة خاصة بولاية نيومكسيكو، التي عاشت فيها فترات طويلة، وخلدت بعض أماكنها في لوحات معبرة. ولهذا لم يكن غريباً أن يوجد معظم ما يرتبط بها في تلك الولاية، خاصة المتحف الذي يحمل اسمها في مدينة سانتا في عاصمة نيومكسيكو.

وقد ولدت جورجيا أوكيف في ١٥ نوفمبر ١٨٨٧ بولاية وسكونسن، وتبدت مواهبها الفنية في فترة مبكرة من حياتها، فتلقت تعليماً في الرسم في مدارس وكليات فنية متعددة في

شيكاغو ونيويورك. وقد جاء ذلك فى وقت لم يكن تخصص الفتيات فى الفنون الجميلة يلقى تشجيعاً، نظراً لما يتطلبه ذلك من دراسة الجسم الإنسانى فى كافة حالاته وأوضاعه. ومما يحكى عن جورجيا أنها خرجت هاربة من الكلية فى أول مرة يطلب منها رسم جسد عار!

وقد بدأت علاقة الفنانة بالجنوب الأمريكى منذ عام ١٩١٢ حين عملت مشرفة فنية بإحدى مدارس مدينة «أماريللو» ثم مدينة «كانيون» بولاية تكساس. وقد عرفت جورجيا بمزاجها العصبى الحاد فى دفاعها عن نفسها وأفكارها، وكان الكثيرون يتجنبونها لأفكارها المتفردة. وقد وضعت نصب عينيها منذ صباها أن تصبح فنانة، وأخذت تجاهد فى سنوات التكوين كيما تجد لنفسها أسلوباً يميزها بوصفها فتاة أمريكية تريد أن تعبر عن مشاعرها الفنية بصورة تختلف عما كان الفنانون الأمريكيون يبدعونه أيامها من لوحات تقليدية، بينما أوروبا تعج بالتيارات الفنية الحديثة. وقد ارتبطت جورجيا أوكيف فى نيويورك بصالة عرض شهيرة فى أوائل القرن تسمى صالة ٢٩١ نسبة إلى رقم البناية التى توجد فيها بالجادة الخامسة هناك، وصاحبها «ألفرد ستيجلتز»،، الذى كان رائداً من رواد فن التصوير الفوتوغرافى فى أمريكا. وكانت صالة ٢٩١ وصاحبها فى طليعة مقدمى الفن الأوروبى الحديث فى أمريكا، وكانت الصالة من أوائل المعارض التى قدمت للأمريكيين

أعمال بيكاسو وماتيس وسيزان وفان جوخ وغيرهم من أعلام الفن الحديث. وكانت الأوساط الفكرية في أمريكا تسعى آنذاك جاهدة لخلق روح أمريكية خاصة في الفنون والآداب، وقد وجدت في جورجيا أوكيف رمزاً للرسم الأمريكى الحديث، كما كان ويليام كارلوس ويليامز وشرود أندرسون وجرترود شتاين وروبرت فروست وإرنست همنجواى يسعون إلى خلق لغة أمريكية صرف في الأدب والفكر الأمريكي. ولهذا تحمس ألفرد ستيجلتز للوحات جورجيا أوكيف حين عرضتها عليه صديقة للطرفين، وأعلن: «أخيراً، أصبح لأمريكا فنانتها الأصيلة». وقد تبنى ألفرد جورجيا فنياً، وبعد انتهاء عقد عملها في تكساس، دعاها إلى العمل في نيويورك، حيث وفدت في ١٩١٨ وبدأت علاقة عمل وفن مع المصور، سرعان ما انقلبت إلى حب جارف. وكان من بين اللوحات التي أعجب بها ألفرد والتي ترجع إلى فترة مقام جورجيا في تكساس اللوحة المسماة «نجمة المساء». وهي تحكي أنها نتاج الأثر الذي تركه في نفسها أول مرة ترى فيها نجوم المساء في نفس الوقت الذي يكون قرص الشمس لايزال ساطعاً في السماء، وهو شيء عجيب لم تره إلا هناك.

وقد تميزت الفترة التي قضتها جورجيا أوكيف فيي نيويورك بالعمل المركز الكثيف في الفن والأدب. فإلى جانب عملها في الكثير من اللوحات، طالعت كتباً فنية وأدبية مختارة، أهمها كتاب

وضعه الرسام التجريدى «فاسيلى كانديسكى» بعنوان «عن الروحية فى الفن»، وهو من أشد الكتب التى أثرت فى جورجيا بما فيه من نظريات وخـواطر فنيـة، كـذلك قـرأت الروايات الأمـريكيـة الكلاسيكية، وأيضاً، مثل كل الفنانين متوقدى الخيال، كتاب ألف ليلة وليلة. وقد أخذت جورجيا عن كانديسكى نظرته إلى أهمية الألوان والأثر النفسى التي تتركه لدى المشاهدين. وقد وعت فى ذاكرتها الاستعارة التى عبّر بها عن ذلك: «يؤثر اللون تأثيراً مباشراً فى روح الإنسان. فاللون هو المفاتيح الموسيقية، والعين هى التى تدق، والروح هى الآلة ذات الأوتار المتعددة، والفنان هو اليد التى تعزف، فتلمس هذا الوتر أو ذاك فى نظام، فتحدث ذبذبات فى قرارة الروح».

وقد عاش ألفرد وجورجيا معاً فى نيويورك، قبل زواجهما فى عام ١٩٢٤، فى وقت لم يكن هذا النمط من العلاقات مألوفاً، ولكن الفن جمع بينهما فقضيا عدة سنوات من العمل الدائب: جورجيا تقدم اللوحة تلو اللوحة، وألفرد يجمع صوره الفوتوغرافية، وأهمها مجموعة ضخمة من الصور التى كان موضوعها هو مصدر إلهامه: جورجيا أوكيف! وقد مثلت مجموعة الصور الفنية التى التقطها ألفرد لجورجيا موضوعاً متكاملاً، وتم عرضها من حين لآخر فى المتاحف الشهيرة ما بين أعوام ١٩٢١ و ١٩٨٣، ولاتزال تعد من خيرة المجموعات الفوتوغرافية العالمية.

وفى الصيف، كان الفنانان يقضيان أوقاتاً طويلة فى منطقى «بحيرة جورج» فى أعالى ولاية نيويورك، حيث أقاما «استوديو» لهما هناك، وهناك، أنتجت جورجيا مجموعة من اللوحات التجريدية عن الطبيعة فى تلك المنطقة. وكانت جورجيا ترسم دائماً فى إطار مجموعات تدور حول نفس الموضوع، فهى قد بدأت بمجموعة لوحات للطبيعة الصامتة، تبعتها بمناظر فى نيويورك، ثم رسمت لوحات «بحيرة جورج» التجريدية. وفى العشرينيات، بدأت فى رسم المجموعات التى اشتهرت بها أكثر من غيرها، وهى الأزهار، من كل صنف ولون. فقد رسمت زهور الخشخاش، والسوسن، والليلك، والنرجس، والزنابق، والبانسيه، والزهور والنباتات الأمريكية مما تراه حولها فى كل مكان. وقد رسمت معظم هذه الأزهار مكبرة بشكل لافت للنظر، كأنها صورة مأخوذة عن قرب. وكانت دائماً ترد على سؤال لماذا ترسم الزهور كبيرة هكذا بسؤال: ولماذا لا تسألنى لماذا أرسم الأنهار والجبال صغيرة هكذا؟! وقد كتب النقاد كثيراً عن الرموز الجنسية فى لوحات الأزهار تلك، وخلصوا منها إلى نظريات نفسية كانت جورجيا تسخر منها وترفضها. ولكن الإجماع النقدى الآن يسلم بوجود تلك الرموز فى لوحاتها، حتى وإن كان ذلك من عمل اللاشعور الذى يخرج فى صورة لا يراها الفنان وإنما تراها عين الناقد الخبيرة الفاحصة.

وبعد أعوام فى نيويورك، تاقت جورجيا إلى الخلاء والأماكن الفسيحة والهدوء الذى عرفته من قبل فى الجنوب الأمريكى، ولذلك بدأت منذ عام ١٩٢٩ فى قضاء بعض الوقت فى نيومكسيكو، وجذبها ما وجدته فى تلك الولاية فى ذلك الوقت من الطبيعة البدائية والبساطة، ونوعية الضوء والنور هناك، وهما أساسيان بالنسبة للرسامين؛ وفوق كل شىء: مناظر الصحراء والوديان والهضاب المتناثرة فى كل مكان. وشجعها على إطالة إقامتها هناك ما طرأ على علاقتها بزوجها من فتور نتيجة اهتمامه بفنانة جديدة واعدة هى «دوروثى نورمان»، التى أخذ يشجعها وينمى نشاطها الأدبى إلى أن شقت طريقها إلى عالم الشهرة. وقابلت جورجيا الروائى الإنجليزى د.هـ. لورانس وزوجته فريدا فى بلدة «تاوس» بنيومكسيكو، حين كان لورانس يبحث فى كل مكان عن الحضارة البدائية، ورسمت لوحة لشجرة أمام المزرعة التى كان يقيم فيها هناك، واسم اللوحة «شجرة لورانس»!

وفى السنوات من ١٩٣٥ إلى ١٩٤٥، أصبحت جورجيا تقضى جانباً من وقتها فى نيومكسيكو، حيث استأجرت منزلاً فى منطقة تسمى «مزرعة الأشباح» لترسم فيه كلما ذهبت إلى هناك. وقد أنجزت فى تلك الفترة مجموعات من اللوحات الفريدة فى تاريخ الرسم الأمريكى؛ فقد رسمت لوحات للتلال، وبيوت الطوب النيىء

الصغيرة، والكنائس البدائية، والصلبان السوداء، وكلها مستوحى من جو المنطقة الصحراوى. ثم جاء غرامها برسم عظام الحيوانات وجماجمها، فأنتجت عدداً كبيراً من لوحات جماجم الأبقار والجياد، مما دفع النقاد، ممن يبحثون عن أثر فرويد فى كل ما يدرسونه، إلى الإشارة إلى استحواذ فكرة الموت على الفنانة فى تلك الفترة. ولم يعد يربطها بنيويورك سوى وجود زوجها هناك. وكانت جورجيا فى أحد رحلاتها الفنية حين مرض ألفرد مرضه الأخير، فعادت إلى نيويورك على عجل، وبقت إلى جواره حتى وفاته فى يوليو ١٩٤٦ . ثم قضت عدة سنوات فى تدبير أمور التركة والممتلكات الفنية، حيث أوصى ألفرد لها بكل ذلك، ثم تعود إلى نيومكسيكو، التى إتخذتها مقاماً دائماً منذ عام ١٩٤٩ . وقد قسمت وقتها هناك ما بين منزل «مزرعة الأشباح» ومنزل أثرى تاريخى آخر اشترته عام ١٩٤٥ بمبلغ رمزى مع تعهدها بترميمه والمحافظة عليه. وهذا المنزل يقع فى قرية منعزلة تسمى «أبيكيو»، ويتكون من عدة غرف مبنية بالطوب النيىء وسط حدائق برية تبلغ مساحتها حوالة الثلاثة فدادين. والمنزل يعود إلى القرن الثامن عشر، أيام كانت الولاية كلها تابعة للمكسيك، والتى لم تنضم إلى الولايات المتحدة إلا عام ١٩١٢؛ والضيعة كلها محاطة بسور خشبى عال لحمايتها من هجمات المغيرين الهنود أيامها. وقد

عملت جورجيا أوكيف على ترميمه مع الاحتفاظ بطابعه القديم، مع تهيئته لمعيشتها وعملها هناك. وقد عمل اكتشاف الفنانة لقرية أبيكيو إلى ظهورها على الخريطة الأمريكية!.

ويقع هذا المنزل الآن تحت إشراف مؤسسة جورجيا أوكيف، الذى جعلت منه مزاراً سياحياً وفنياً لعشاق سيدة الرسم الأمريكى. ونظراً لضعف بنية المنزل، لا يسمح بزيارته إلا لأفواج قليلة العدد، ولهذا يلزم الحجز قبل الزيارة بخمسة أشهر على الأقل. ويرى الزوار فيه الأستوديو الذى كانت تستخدمه الفنانة، وغرفة نومها والحديقة والساحة ذات الطراز الإسبانى وثمة مستنسخات للوحات جورجيا، أهمها لوحة «سماء ملبدة بالسحب» الموجودة فى متحف شيكاغو للفنون. وقد رسمت هناك مجموعة لوحاتها المستوحاة من مناظر السحب التى كانت تراها فى رحلاتها الجوية المتعددة، والتى بدأت ترسمها بعد عام ١٩٦٠ .

أما لوحات جورجيا أوكيف الأصلية، خارج المجموعات الخاصة والمتاحف العالمية، فهى موجودة فى المتحف الذى يحمل اسمها بمدينة «سانتافى» بنيومكسيكو. وقد أحسنت مؤسسة أوكيف الاستعداد لتجهيز هذا المتحف الممول تمويلاً خاصاً، فقد وضع تصميم بنائه مهندس معمارى متميز، وافتتح عام ١٩٩٧ ، ويضم

بين جدرانه عدداً كبيراً من لوحاتها ورسومها ومنحوتاتها، مما يجعله موقعاً أساسياً لزيارة المهتمين بالفنانة وعملها.

وقد عانت جورجيا أوكيف من عوارض الشيخوخة فى آخر أيامها، ومنها ضعف البصر الشديد وصعوبة الحركة، ولكن المعروف عنها أنها لم تكف عن الإنتاج حتى وفاتها فى ٦ مارس ١٩٨٦ ، بعد أن شارفت على إتمام المائة سنة من عمرها. واليوم، أصبح اسمها علماً على الشخصية الأمريكية المتميزة فى الرسم الحديث، وسار على دربها العديد من الفنانين الذين تأثروا بلوحاتها وآرائها الفنية.

جوجان
رسام
البحار
الجنوبية

كـان فنان هذه المقـالة من الجـمـوح بـحـيث يـحـمل من يريد التعرف على خطاه إلى بقاع قصية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على روح الفنان التى لا تهدأ ولا تستقر إلا حين تحقق ذاتها، وإن كان ذلك يعنى السير فى الطريق الوعر، طريق العزلة والغربة والموت. فنان اليـوم كـان رب أسرة ناجـحاً، يعمل فى باريس فى وظيفة محترمة ببورصة الأوراق المالية، وزوجاً لحسناء دانمركية أنجب منها خمسة أطفال، ويعيش فى دعة فى عاصمة النور فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ولكن بذرة الفن كـانت فى صميم فؤاده، وتمثلت أول الأمر فى اهتمامه بالرسم والرسامين، وشـراء اللوحـات الفنيـة التى يحـبـهـا، خـاصـة من إنتاج أولئك الانطبـاعـيين الذين كـانوا حـديث أهل الفن وقـتـهـا، مـثل بيـسـارو ومـونيـه ومـانيـه وديجـا وغيرهم. وفـجـأة، بعد أن حـدثت هزة فى

الاقتصاد العالمى والفرنسى خاصة، فقد جوجان وظيفته. ورغم أنه كان بإمكانه الحصول على عمل آخر بسهولة، فقد اعتبر ما حدث مؤشرا له لتغيير حياته، إذ شعر بأن الوقت قد حان كيما يطلق بذرة الفن الكامنة فى أعماقه إلى النور. وهكذا، قرر أن يتخذ الرسم مهنة يتكسب منها، رغم اعتراض أصدقائه من الفنانين، وعلى رأسهم بيسارو الذى اعتبر نفسه مسؤولا عن قرار جوجان. وتغيرت أحوال الأسرة نتيجة لذلك، فقد انتقلت من باريس إلى مدينة «روان» فى الشمال الغربى توفيراً للنفقات. وتبعت ذلك سنتان من عدم الاستقرار، إذ لم تحتمل زوجته المعيشة فى روان فرحلت مع أولادها إلى كوبنهاجن، ثم لحق بهم جوجان، إلا أن شجاره الدائم مع أسرة زوجته دعاه إلى ترك الدانمرك والعودة مع أحد أبنائه إلى باريس حيث بدأ يثبت خطاه فى طريق الفن. ورغم أنه قد عاش تلك الفترة فى فقر مدقع، فإنه تمكن من الاشتراك فى آخر معرض للانطباعيين بسبع عشرة لوحة. وألحت عليه بعد ذلك فكرة انتقاء منطقة يستقر فيها وينشىء ما يشبه المستعمرة للرسامين من أمثاله، فوقع اختياره على بقعة نائية من مقاطعة «بريتانى» تدعى «بون آفان»، عاش فيها بين أحضان الطبيعة والمشاهد الفلكلورية التى يتميز بها أهل المقاطعة، وهو ما انعكس على لوحاته فى تلك الفترة، وأهمها «صورة ذاتية» و «فلاحات بريتانى». وقد تخللت إقامته الطويلة فى بريتانى مغامرة قام بها

فى ١٨٨٦ بالسفر إلى بنما حيث كان يحلم بالعمل هناك، إلا أن الأمر انتهى به إلى العمل «فاعلاً» فى قناة بنما، مما أنهكه وشغله عن فنه، واضطرت السلطات بعد ذلك إلى ترحيله إلى بلاده من جزر المارتينيك حيث كان قد رحل. كذلك ترجع إلى تلك الفترة زياراته المتعددة إلى باريس للقاء أهل الفن وتبادل الخبرات والآراء. وقد تعرف فى أثناء ذلك على فان جوخ وتوطدت أواصر الصداقة بينهما، خاصة أن فان جوخ شاطره حلم إقامة المستعمرة للرسامين، بل وشرع فى تنفيذها بالرحيل إلى بلدة آرل بجنوب فرنسا، فى انتظار أن يلحق جوجان به، وهذا ما حدث بالفعل. إلا أن إقامته هناك لم تتعد الشهرين، وانتهى الأمر بالفنانين الكبيرين إلى الشقاق والشجار العنيف، مما حمل جوجان إلى العودة إلى باريس، بينما أدى إحباط آمال فان جوخ إلى قطعه أذنه فى نوبة من الهياج العصبى. وقد كتب جوجان عن اختلاف شخصيتيهما قائلاً: «إن فنسنت رومانسى، أما أنا فأميل نحو البدائية».

وتبع ذلك وقت من العمل المكثف فى باريس وفى مناطق بريتانى التى أحبها، برزت فيه ملامح الخطوط الفنية التى تميز بها جوجان؛ وتطورت رسومه من الانطباعية إلى ما بعد الانطباعية إلى الرمزية، نتيجة اتصاله بالشعراء الرمزيين. وأنتج فى تلك الفترة عدداً كبيراً من أعماله المشهورة، منها: المسيح

الأصفر، رؤيا بعد العظة؛ أنجيل الجميلة؛ بين الأمواج. وقد أجمع النقاد على أن جوجان قد بلغ آنذاك مرحلة النضج الفنى حملت معها بساطة فى التعبير وجرأة في الضرب بريشته على اللوحة فى نفس الوقت. ثم أخذت تستبين تدريجياً فى رسومه ملامح «البدائية»، وهى السمة التى ستغلب عليه منذ ذلك الوقت وحتى النهاية. وقد أراد أن يطبق على حياته ما يطبقه على فنه، خاصة بعد أن لم يعد يطيق الحياة فى باريس بكل زيفها وصخبها، فأخذ يفكر فى النزوح إلى مكان لآخر لم تصل إليه الحضارة الحديثة وتغطية بزيفها وماديتها. وخطرت له أولاً فكرة الرحيل إلى مدغشقر بافريقيا؛ وكتب أثناء ذلك يتحدث عن عزمه «الرحيل عن الغرب المتعفن من الحضارة الصناعية. إن أقوى الرجال وأنشطهم سيزداد قوة ونشاطاً حين تمس يداه أرض الشرق. وبعد سنة أو اثنتين، يعود المرء قوياً معافى...». ثم كتب فى سبتمبر ١٨٩٠: «إن مدغشقر قريبة من العالم المتحضر. لسوف أذهب إلى تاهيتى حيث آمل أن أقضى بقية حياتى هناك. إنى أعتقد أن فنى ما هو إلا بذرة سوف أزرعها فى تاهيتى كى تؤتى ثمارها فى تلك الأرض البدائية الوحشية».

ويضع جوجان مشروعه موضع التنفيذ على الفور، فأقام مزاداً فى فبراير ١٨٩١ فى فندق مشهور لبيع ما تجمع من لوحاته كى

يجمع المال اللازم لرحلته إلى تلك الأصقاع النائية. ونجح المزاد، وبعد زيارة سريعة إلى أسرته فى الدانمرك، أقام له اصدقاؤه الباريسيون، وعلى رأسهم شاعر الرمزية ستيفان مالارميه، حفلاً لتوديعه. وقد صرح جوجان عشية رحيله بقوله الشهير: «إنى أرحل بحثاً عن السلام، كيما أخلّص نفسى من تأثير الحضارة. إنى أريد فحسب أن أخلق فنا يتسم بالبساطة، البساطة الشديدة. وأنا أحتاج لذلك أن أجدد نفسى وسط حضارة لم تمتد إليها أسباب الفساد، أريد ألا أرى من حولى إلا الناس البدائيين، وأن أعيش كما يعيشون، دون رغبة سوى أن أنقل فى لوحاتى ما يخطر على بالى، لا يدفعنى فى ذلك إلا وسائل التعبير البدائية، وهى الوسائل الوحيدة التى تتسم بالحق والصدق».

ومع رحيل جوجان إلى تاهيتى مستقلاً الباخرة من ميناء مرسيليا فى ١ أبريل ١٨٩١، تبدأ معايشته للحضارة البدائية الفطرية، ومعاناته معها، فى سلسلة من الرحلات بين جزر البحار الجنوبية تلك وبين فرنسا. ومنذ رحيله الأول ذاك، اتسمت لوحاته بذلك الطابع البدائى العفوى - الأقرب إلى رسوم الأطفال - الذى تميز به، والذى نراه فى عشرات اللوحات التى أصبحت بعد ذلك دررا فنية تزين المتاحف العالمية والمجموعات الخاصة. وفى إقامته الأولى فى «بابيتى» عاصمة تاهيتى، اندمج مع السكان

الأصليين، وعاش نفس معيشتهم، ولكن خاب أمله فى العثور على أهل الفطرة الطبيعية فيهم، إذ كان سكان العاصمة ينقسمون إلى مستعمرين فرنسيين يحيون حياة البرجوازية المتعالية، والسكان الأصليين وهم فى حالة من الفقر المدقع والتبعية الكاملة. وعندها انتقل جوجان إلى منطقة تبعد حوالى مائة كيلومتر من العاصمة، فى مقاطعة تسمى «ماتايا»، حيث وجد ضالته المنشودة من جمال الطبيعة والسكان، فأقام لنفسه كوخا هناك، يرسم فيه ويعيش عيشة أقرب إلى الفطرة. وركز فى لوحاته على الرجال والنساء من أهل البلاد وهم يقومون بأعمالهم اليومية، حيث تمتزج الطبيعة البدائية من حولهم بنفوسهم العفوية، وهو مزيج نجح جوجان نجاحاً كبيراً فى تجسيده فى لوحاته التى تعود إلى تلك الفترة من حياته، ومنها لوحات «امرأة وزهرة»، «على الشاطىء»، «نوم القيلولة». وتظهر لوحته المشهورة «حامل الفأس» حركة عزقة الفلاح وقد تجمدت فى الزمان والمكان بتأثير الكآبة الحلمية التى تطغى على اللوحة. وقد كتب يقول عن إقامته فى ماتايا: «إنى أعمل فى جد، الآن وقد أصبحت أليف بالأرض التاهيتية ورائحتها. ومازال أهل تاهيتى الذين أرسمهم على نحو ملىء بالأسرار، يحتفظون بطابعهم البولونيزى الأصلى، وهم ليسوا كالشرقيين الذين نراهم فى باريس». وقد كان محقاً فى إدراكه أنه قد توصل إلى فهم نفسية

أهل البلاد، فقد إتخذ له فتاة منهم كانت مصدر إلهامه فى لوحاته وفى مشاطرته حياته هناك، كما أنها ساعدته فى معرفة تاريخ البلاد وتقاليد أهلها وعاداتهم وطقوس معيشتهم، وقد تمخضت تلك المعرفة عن كتاب وضعه بعد ذلك عن تلك البقاع، ولوحات كثيرة أشهرها «روح الموتى يقظة».

ورغم سعادة جوجان فى موطنه النائى، إلا أن الوحدة كانت تثقل عليه، ثم غلبه على أمره افتقاره الشديد إلى المال، ولذلك فقد اضطر إلى العودة إلى فرنسا بعد عامين أنجز فيهما ثمانين لوحة. ووصل إلى باريس وليس فى جيبه سوى أربعة فرنكات، ولكن رأسه كان عامراً بالآمال اعتماداً على صيته الذى ذاع عن إنجازاته الفنية فى تاهيتى. بيد أن تلك الآمال تبددت سريعاً، إذ كان كثير من رفاقه الفنانين قد رحلوا، ولم يتفهم من بقى منهم نمطه الفنى الجديد، عدا «ديجا» الذى اقتنى عدداً من لوحاته لمجموعته الخاصة، وجماعة الرمزيين الذين احتفوا برسومه إجلالا لصديقه مالارميه. وقضى جوجان ما يقرب من عامين فى فرنسا، ما بين باريس وبريتانى، مثيراً عجب الناس بغرابة أطواره وملابسه، وأقام معارض للوحاته فى باريس وبروكسل وكوبنهاجن. وعند إقامة جوجان معرضه الأخير فى باريس، طلب من صديقه المسرحى الكبير ستريندبرج أن يكتب له نبذة يدرجها

فى كتالوج المعرض، ولكن الكاتب اعتذربرسالة بلغ من إعجاب جوجان بها أن طبعها فى الكتالوج مع تعليقه عليها. وقد صور الفيلم الأمريكى «الذئب وراء الباب»، الذى أنتج عام ١٩٨٦ وقام فيه دونالد سذر لاند بدور البطولة، هذين العامين من حياته تصويراً مفصلاً رائعاً.

وبعد أن أيقن جوجان من عدم تفهم أهل الفن لطريقته الجديدة فى الرسم، قرر أن يهجر بلاده إلى الأبد، ويعيش بقية حياته بعيداً عنها وعن أسرته. وهكذا عاد فى سبتمبر ١٨٩٥ إلى تاهيتى ليجد أن هذين العامين قد أضفيا عليها مسحة غريبة جعلتها أقرب ما يكون إلى المسخ المشوه، وزاد من أزمته أن داهمته الأمراض فى هذه الزورة الأخيرة. وترجع إلى تلك الفترة الحادثة المشهورة حين وافق صيدلى المدينة على إلغاء ديون جوجان لديه مقابل إحدى لوحاته، فرسم له الفنان لوحته المعروفة «الحصان الأبيض». ولكن الرجل ثار وغضب عند رؤيته للوحة، لأن الحصان كان مرسوماً باللون الأخضر وليس الأبيض! ودفعت به تلك الظروف إلى التفكير فى إنهاء حياته، وقام برسم لوحة كبيرة هامة لتكون بمثابة وصيته الأخيرة، وأطلق عليها عنوان «من أين نأتى، ومن نحن، وإلى أين نمضى؟»، وهى لوحة ملحمية ضخمة، تصور الإنسان ومسيرته من الطفولة إلى الكهولة فالشيخوخة. ورسم بعدها، بعد أن

زالت عنه غمة الانتحار، رائعة أخرى عنوانها «أبداً بعد ذلك» استوحاها من قصيدة إدجار ألان بو «الغراب» التى عرفها من ترجمة مالارميه، ومزج فيها ما بين البدائية والرمزية الفنية.

ومرة أخرى، يتجه جوجان إلى مكان بعيد عن مدنية العاصمة، واختار هذه المرة جزيرة أخرى تابعة لفرنسا هى «جزر المركيزات»، وابتنى له بيتاً بدائياً هناك، حفر على واجهته نقوشاً غريبة وأطلق عليه اسم «منزل البهجة». وقضى الفنان سنتين أخريين هناك قبل أن تقضى عليه أزمة قلبية فى ٨ مايو ١٩٠٣. وفى حين تنتشر لوحاته فى حواضر العالم، فإن متحفه الوحيد هو فى ماتايا، تلك البلدة التى فى أطراف تاهيتى التى قضى فيها أصفى أيامه. وهكذا يفرض جوجان على محبى فنه الذهاب معه إلى آخر الدنيا فى تلمس خطاه والتعرف على حياته.

مدينة
الجريمة
والعقاب

من نافذة الحجرة التى كان عملاق الرواية الروسية دستويفسكى يسطر فيها رائعته «الأخوة كارامازوف»، كان يطل على المناظر المألوفة له آنذاك فى مدينة سان بطرسبرج التى قضى فيها ثلاثين عاماً من حياته وكتب فيها جل رواياته ومن ثم ارتبطت به وبكتبه أكثر من ارتباطه بموسكو التى ولد فيها عام ١٨٢١. ورغم أن تلك المدينة تزخر بالآثار الباقية لكثير من الأدباء والفنانين الروس، ومنهم بوشكين وجوجول، والكساندر بلوك وأخماتوفا، فإنها لا تذكر إلا مقترنة باسم الأديب الكبير الذى برع فى تصوير النفس الإنسانية من خلال شخصياته الحية التى عاشت فى أحياء سان بطرسبرج. ورغم أن الكثير من معالم المدينة قد تغير منذ أيام دستويفسكى، فهى تحمل الآن نفس الاسم الذى عرفها به الروائى العظيم، إذ عاد إليها مع الإنقلاب الجذرى الذى طرأ على الاتحاد

السوفيتى فى الآونة الحديثة، بعد أن كان اسم المدينة قد أصبح لينينجراد فى عام ١٩٢٤ وارتبط هذا الاسم الأخير بنضال المدينة البطولى ضد القوات النازية فى الحرب العالمية الثانية. ومع سقوط الاتحاد السوفييتى وعودة اسم سان بطرسبرج إلى المدينة، تغيرت أيضاً المناظر التى يمكن رؤيتها من نافذة الحجرة التى كان يكتب فيها مؤلفنا. فلو أنه كان يطل الآن من حجرته لرأى البوتيكات الحديثة تبيع البضائع الأمريكية من أحدث طراز، وفروع الشركات عبر الوطنية تعلن عن نفسها بأنوار النيون الباهرة، ولوجد من حوله كل ما كان يحاربه من الأشياء الغربية البحتة التى تفتتت على الشخصية الروسية التى كان يدافع عنها.

ورغم أن طبعة من المؤلفات الكاملة لدستويفسكى قد صدرت فى الاتحاد السوفيتى فى أوائل العشرينيات، فإن المسؤولين العقائديين هاجموه باعتباره «رجعيا ومثبطا للعزائم وعدوا فكريا للنظام الجديد»، ووجدوا فى رواياته نزعة دينية صوفية لا تتفق مع التعاليم الجديدة. وعلى ذلك كانت كتبه تكاد تكون محرمة، وأصبح من العسير العثور عليها فى بلاده. واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٩٥٦، بعد أن تغيرت الأوضاع على يد خروشوف، وعندها تم إخراج طبعات جديدة من كتبه وأعيد له اعتباره بوصفه كاتب الشعب الذى نفذ إلى أغوار النفس الإنسانية ليقدمها

فى صور ضعفها وبؤسها وشقائها. وتكلل هذا التقدير الوطنى عام ١٩٧١ باختيار الدولة لآخر بيت أقام فيه الكاتب لتحويله إلى متحف دستويفسكى.

ومتحف دستويفسكى يقع فى شارع «كوزنِشنى» فى قلب سان بطرسبرج، ويتكون من ثلاثة طوابق. وقد خصص جانب منه للوحات الزيتية التى أثرت على الكاتب وعلى أفراد جيله، وأهمها لوحات عن الثورة الفرنسية. ويضم المتحف مخطوطات رواياته، وعليها ملاحظات بخط الكاتب، والكتب التى كان يقرأها وتأثر بها، ومنها مؤلفات شكسبير وبلزاك وفكتور هوجو وجوتة وشيللر. كما يضم المكتب الذى سطر عليه مؤلفاته الخالدة، ونسخة الكتاب المقدس التى احتفظ بها منذ أيام منفاه. وتنظم إدارة المتحف جولة للزوار يتعرفون فيها على أهم معالم المدينة التى ارتبطت بالكاتب وبمؤلفاته وشخصياته ورواياته، وهى تبدأ فى المتحف، وتمر بالأماكن التى جرت فيها أحداث رواية الجريمة والعقاب، وتمر على بعض البيوت التى أقام فيها الكاتب، ثم تنتهى إلى زيارة قبره الواقع فى دير ألكساندر نفسكى المجاور للمتحف.

وقد ولد فيودور دستويفسكى فى ٣٠ أكتوبر ١٨٢١ فى موسكو فى أسرة ميسورة الحال وإن كانت بائسة نتيجة لعصبية الأب وإدمانه الشراب مما انتهى إلى موته مقتولاً بيد فلاحى أرضه. وقد

عاش كاتبنا طفولة تعسة فى كنف هذا الأب، الذى استلهمه بعد ذلك فى صورة الأب كرامازوف فى روايته الخالدة. وبعد وفاة والدته وهو فى سن السادسة عشرة، يرحل إلى سان بطرسبرج ليلتحق هناك بمدرسة الهندسة العسكرية. وهناك، يصاب بأولى نوبات الصرع عندما يبلغه نبأ مقتل أبيه. وبعد تخرجه من المدرسة، يعمل ضابطاً مدة من الزمن إلى أن يستقيل من وظيفته لعدم رغبته فى ترك العاصمة والانتقال إلى الأقاليم، ويتفرغ للكتابة والترجمة. وكان يعمل فى وقت واحد فى كتابة أولى مؤلفاته وفى ترجمة بعض كتب بلزاك إلى الروسية كى يفى بنفقات معيشته فى بطرسبرج. وقد لاقت أولى رواياته «أناس مساكين» قبولاً لدى الناقد الكبير نكراسوف، مما مكنه من نشرها عام ١٨٤٦ فصادفت نجاحاً كبيراً وفتحت الطريق أمام مؤلفها للدخول إلى مصاف الأدباء فى عصره. وبدأ بعدها يرتاد أوساط المثقفين والمفكرين، حيث اشتهر بحدة طباعه التى ورثها عن والده، وإغراقه فى الشراب ولعب القمار اللذين أديا إلى اضطراب أحواله المالية وتراكم الديون عليه.

وكان بطرس الأكبر قد أسس سان بطرسبرج عام ١٧٠٣، وجلب لها المعماريين الفرنسيين والإيطاليين ليشيدوها على نمط الحواضر العظمى، ثم جعلها عاصمة روسيا بدلاً من موسكو،

وظلت العاصمة حتى عام ١٩١٨ بعد قيام الثورة الشيوعية. وتطورت المدينة حتى أصبحت مركزاً دوليا وثقافياً واجتماعيا، ولذلك كان من الطبيعى أن تصل إليها تيارات الحرية والديمقراطية عن طريق كتب دعاة التنوير الفرنسيين. ولما اعتلى القيصر نيقولا الأول العرش، أخذ يعمل جاهداً للقضاء على هذه التيارات التى كانت تحاول القضاء على الظلم الاجتماعى والسياسى فى البلاد. وكان من أبرز السبل فى موجة القمع القيصرى اضطهاد أرباب القلم والفكر ومراقبتهم ومطاردتهم. وكانت هذه هى الدوامة الفكرية والسياسية التى وجد دستويفسكى نفسه محاطاً بها حين دلف إلى مجتمع سان بطرسبرج. وفى هذه الحياة الجديدة فى العاصمة، ارتبط ببعض الشبان ذوى الميول الثورية من كانوا يدعون إلى ضرورة التغيير وينتقدون الحكم المطلق والظلم الاجتماعى، وينادون بالآراء الاشتراكية التى تعلموها من كتابات روبرت أوين وفورييه وبرودون. وتم القبض على أفراد هذه الجماعة ومنهم دستويفسكى، وطلب القيصر من أعوانه أن يجعلوا منهم عبرة لمن تسول له نفسه الخروج عليه. وكانت النتيجة هى تلك التمثيلية المشهورة التى اقتيد فيها أفراد الجماعة لإعدامهم رمياً بالرصاص ويتم تعصيب أعينهم ويصدر الأمر بإطلاق النار، حين يتقدم رسول القيصر ويعلن إلغاء الإعدام والاستعاضة عنه بالسجن

والنفى إلى سيبيريا. ثم كانت فترة السجن الرهيبة التى سجل الكاتب انطباعاته عنها فى كتابه «بيت الموتى»، حيث زادت ظروف سجنه من حدة نوبات الصراع التى تصيبه. وفى فترة المنفى التى تلت السجن يعقد صداقات مع الضباط والموظفين فى تلك الأصقاع النائية، وتثمر تلك الصلات فى زواجه من أرملة أحد الضباط من أصدقائه وقد حمله العذاب الذى تعرض له طوال تلك السنين على التحول للدين، كما كان له أثر كبير فى رواياته يظهر فى عطفه الشامل لكل بنى البشر.

وبعد اعتلاء القيصر الجديد اسكندر الثانى سدة العرش، يتم العفو عن دستويفسكى ويسمح له أخيراً بالعودة إلى مدينته بطرسبرج فى ١٨٥٩ . ويستأنف الكاتب مرحلته الثانية كأديب، فيصدر هو وأخوه ميخائيل مجلة سمياها «الزمن» لتعبر عن الآراء الوطنية المعتدلة؛ ونشرت فيها مقالات لكبار الكتاب إلى جانب القصص التى يقبل عليها جمهور القراء. وقد نشر فيها دستويفسكى رواياته «بيت الموتى» و «مهانون مجروحون» فى ١٨٦٢ ثم «مذكرات من العالم السفلى»» فى ١٨٦٤ .

وفى عام ١٨٦٤ تتوفى زوجته ثم يلحق بها أخوه الحبيب ميخائيل، فيمثل ذلك ضربة قاصمة تملأ نفسه بالتشاؤم والكآبة التى ستنعكس فى أعماله التالية. وتزيد الأعباء العائلية التى تحملها

عن أخيه من حاجته الماسة للنقود، فيتفق على إنجاز رواية جديدة فى زمن قصير، ويعمد إلى استخدام سكرتيرة يملى عليها ما يريد كتابته، وهى «أنّا سنتكينا» التى أصبحت زوجته فيما بعد، وكان الكتاب هو «المقامر». وبعد زواجه من سكرتيرته، يرحلان معاً إلى بعض الدول الأوروبية للاستشفاء، غير أن ولع دستويفسكى بالمقامرة يفسد عليهما متعة الترحال. وقد أوحت إليه إحدى نوبات الغضب من حاجته للمال بفكرة أخلد رواياته: «الجريمة والعقاب»، التى كتبها بعد عودته إلى بطرسبرج. ورواية الجريمة والعقاب هى صورة فذة للخطيئة والندم والتكفير عن طريق التضحية، وقد ترجمت هذه الرواية إلى كل اللغات تقريباً، وصورت فى أفلام كثير من البلدان ومنها مصر. وفى الجولة التى ينظمها متحف دستويفسكى، يطوف الزوار بالأماكن التى وصفها المؤلف فى تلك الرواية فيرون الشقة التى كان يقطنها المؤلف فى أثناء كتابته للرواية، وهى أشبه بالزنزانة عنها بالشقة، وتقع فى حى سوق الأغذية الموصوفة فى الكتاب والتى تسمى «معدة» سان بطرسبرج. ويقطع الزوار الطريق الذى قطعه بطل الرواية «راسكولنكوف» من منزله إلى منزل المرابية العجوز التى قتلها لسرقة أموالها، ثم يعبرون الجسر الذى وقف عليه نفس البطل بعد ذلك حين كان يفكر فى الانتحار.

ورغم النجاح الكبير للرواية، فإنها لم تكف لسد حاجته إلى النقود، مما يضطره إلى الرحيل مرة أخرى إلى الخارج هرباً من الدائنين، وكانت هجرة دامت خمس سنوات. وفى تنقله وزوجته بين مدن ألمانيا وسويسرا وإيطاليا، يتم روايتين عظيمتين أخريين: «الأبله» و «الشياطين». وقد أثارت الرواية الثانية ضجة كبيرة لميولها السياسية المحافظة وللهجوم المقنّع الذى شنه دستويفسكى فيها على الكاتب الشهير تورجنيف ممثلاً فى إحدى شخصيات الرواية. وبعد العودة إلى سان بطرسبرج، تضطر الزوجة إلى أن تتولى الأمور المالية بنفسها بعد أن بلغت الديون عليهما حداً هائلاً. وتثبت «أنّا» أنها ماهرة فى الأمور المالية مهارتها فى أعمال السكرتارية التى تقوم بها لزوجها، فتعهدت الاتفاق مع الناشرين وأصحاب المطابع، التى وجدوا فيها امرأة حكيمة تراعى مصالح الكاتب الكبير. ولم تلبث حياتهما أن عرفت نوعاً من الاستقرار، تمكن معه دستويفسكى من العمل فى هدوء فى رواياته التالية. ويعمل فى نفس الوقت على الوصول إلى الجماهير العريضة عن طريق كتابة المقالات فى صحيفة «جرازدنين» الأسبوعية والتى أصبح رئيساً لتحريرها، فينشر فيها مقالاته الشهيرة تحت اسم «مذكرات مؤلف» التى جمعت بعد ذلك فى مجلدين كبيرين. وتصدر له رواية «الشباب الغض» (١٨٧٥) التى تصور تدهور

العلاقات الأسرية وعجز العلم عن الوفاء بالحاجة الأساسية للبشر وهى إيجاد هدف للحياة فيما وراء الكفاح من أجل البقاء. وكانت هذه كلها موضوعات روايته الأخيرة العظيمة «الأخوة كرامازوف»، التى كتبها فى عامى ١٨٧٩ و ١٨٨٠، والتى ضمّنها الكثير من فحوى المناقشات التى كان يجريها فى أمور الفلسفة والدين مع أصدقائه من المفكرين والأدباء. ورغم أن الكاتب الكبير قد وضع بعد نشر تلك الرواية برنامجاً لمؤلفات جديدة يكتبها عبر عشر سنوات، فإن القدر لم يمهله الفرصة لإتمام أى منها، إذ فاجأه نزيف رئوى قضى عليه فى ٢٨ يناير ١٨٨١. وقد وضعت إدارة متحف دستويفسكى فى قاعة مكتبه ساعة حائط متوقفة عند اللحظة التى توفى فيها: الساعة ٨ والدقيقة ٣٨ مساءً.

ودستويفسكى عملاق من عمالقة الرواية، تتميز كتبه بالتحليل النفسى العميق وبالقدرة الخارقة على التعبير عن الحب لكل البشر والعطف عليهم مهما بلغوا من الشرور. وقد تأثر به كل الروائيين من بعده، ومن بينهم أستاذ الرواية العربية نجيب محفوظ الذى وضعه دائماً من بين من تأثر بهم فى حياته الأدبية.

رامبو...

بين

القاهرة

والإسكندرية

بينما راحت العربة تقطع الطريق على الحدود بين بلجيكا وفرنسا، فى طريقها إلى بلدة الشاعر الجوّال، كانت أبيات قصيدته، التى يعتبرها النقاد الآن أشهر قصيدة مفردة فى اللغة الفرنسية، تتردد فى ذهنى فى إيقاع منغوم: «بينما رحت أهبط عبر أنهار جامدة؛ لم أعد أشعر بالملاحين يقودون خطاى؛ فقد صوب إليهم الهنود الحمر الصارخون سهامهم؛ وشدّوهم عرايا إلى الصوارى الملونة». ولقد كنت دائماً أتساءل عند قراءتى المبكرة لحياة ذلك الشاعر الفريدة، كيف كان يتنقل فى صباه هكذا بين دولتين - بلجيكا وفرنسا مشيا على قدميه، كلما ضاق ببلدته وأسرته والقيود التى يفرضانها عليه. وعندما وصلت بنا العربة، فى ذلك الصيف من عام ١٩٩٧، إلى الخط الفاصل بين الدولتين، وضحت فىَ ذهنى الإجابة على الفور؛ لم يكن هناك خطا ولا حدودا ولا

فواصل، لم يكن هناك إلا لافتة تحمل اسم «فرنسا» تنبه المرء إلى أنه ترك دولة ودخل دولة أخرى، ولكن الطبيعة واحدة والجبال واحدة والأنهار واحدة، ولم يكن على الطريق السريع أى فرد يراقب الداخل والخارج، لا شيء بالمرة! وتنبهت إلى أننا فى عام ١٩٩٧ ، وأن الاتحاد الأوروبى قد رفع الحدود ما بين ثمانى دول، وأن تأشيرة دخول واحدة تكفى للتنقل بين كل تلك الدول. ولما وصلنا إلى بلدة «شارلفيل» بعد وقت قصير، أدركت أننى فى بيئة الشاعر ومسارح صباه وحياته، وأن من أهم الأمور المساعدة لدراسة فنان أو أديب أو مفكر التعرف على المناطق التى عاش فيها أو زارها وتركت أثراً فى تكوينه وفى إنتاجه.

وصلنا شارلفيل ونحن ننتوى المكوث فيها يومين فتطاولا حتى بلغا سبعا، من أجل السير على طريق أحد الشعراء الصعاليك الفرنسيين: آرثر رامبو. وكانت تجربة لا تنسى أن يسير المرء على ضفاف نهر «الميز» الذى طالما سار عليها الشاعر وهو يرقب المياه، ويتنقل بين ربوع البلدة التى تنقل فيها، ويرى المنزل الذى ولد فيه والمدرسة التى تعلم فيها، والتى تحولت الآن إلى مكتبة البلدية. وتعطى الطبيعة الساحرة التى تحيط بالبلدة، والتى تصلها بالأراضى البلجيكية، فكرة طيبة عن كيفية إنتقال رامبو مراراً بين البلدين سيراً على الأقدام، طلباً للحرية وهرباً من ضغوط أسرته ومدرسته.

وقد ولد آرثر رامبو في ٢٤ أكتوبر ١٨٥٤، وكان أبوه ضابطا مغامراً لا يستقر له قرار، وما لبث أن هجر الأسرة حين كان رامبو في السادسة من عمره، ولم يروه بعد ذلك أبداً. ولا شك أن رامبو قد ورث عن ذلك الأب حب الترحال وعدم الاستقرار وجموح الطباع والثورة على كل شيء؛ وورث عن أمه ما اشتهر به بعد هجره الشعر وعمله بالتجارة من حسن التدبير في كسب المال. وقد التحق رامبو بمعهد «روسا» ثم بالمدرسة الثانوية بالمدينة؛ وتلقى هناك التعليم الفرنسي التقليدي أيامها، الذي كان يركز على اللغتين اليونانية واللاتينية، والتاريخ واللغة والرياضيات. وكانت فترة صباه التعليمية فترة عاصفة، فهو لم يكن يطيق النظام والقيود التي كان يفرضها عليه البيت والمدرسة، فكان يتمرد عليهما دائماً. ورغم ذلك، مكّنه ذكاؤه الحاد من التفوق في دروسه دون جهد، فكان يحصد الجوائز المدرسية على الدوام. وقد أتقن اللاتينية إلى حد أنه كان ينظم الشعر بها، وحازت بعض قصائده على جوائز عامة، كما كانت تنشر في الصحف الأدبية المحلية. وكان يقضي وقته هائماً في الريف وعلى ضفاف «الميز»، ويقرأ كل ما تقع عليه يداه. وقد شجعه على طموحاته الأدبية والتحررية أستاذه «ايزمبار»، الذي أقرض الكتب الجديدة التي كانت محرمة في بيئة إقليمية منغلقة مثل شارلفيل. وطالع رامبو كتب هوجو وبودلير

وسان سيمون وميشليه، وسرعان ما بدأ يدبج القصائد بالفرنسية، ويضع تصوره الخاص لما يجب أن يكون عليه الشعر والشعراء.

ولما بلغ رامبو السابعة عشرة من عمره، كان قد حاول بالفعل هجر منزله وبلدته أربع مرات على الأقل، منها المرة التى توجه فيها إلى باريس للاشتراك فى ثورة الكوميون، تلك الثورة التى أعقبت هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠ أمام القوات الألمانية البروسية، والتى أدت إلى سقوط الإمبراطور نابليون الثالث. وبعد أن عاد رامبو بعد تلك التجربة التى ملأته بالمرارة، عكف على تعويض إحساساته بالانكباب على الكتابة؛ وكان نتيجة ذلك مقالته عن الفن والشعر التى ذكر فيها أن الفن الحقيقى يجب أن ينبع من «الذات الأخرى» الخفية لدى الفنان، وأن سبيله إلى الكشف عن تلك الذات هو الحب والألم والجنون، وعلى الفنان أن يخلط فى نفسه بين كل أنواع الحواس بحيث يمكنه فى النهاية أن يصبح «بصيراً»، وتكون جميع حواسه فى اتصال وتآلف، كما لو أنه عاد إلى ينبوع واحد لها جميعاً، فالعين ترى رفيف الأجنحة، والأذن تسمع عبور الرؤى، وكل جارحة من جوارح الإنسان تزدهر وتنتعش أمام تألق الأشياء بالألوان والأضواء والأشذاء وتفيض بالشعر» (صدقى إسماعيل). وواكب تلك المقالة تدبيجه قصيدتين طويلتين من أبرز أشعاره، الأولى بعنوان «ما يقال للشاعر عن

الأزهار، أما الثانية فهى القصيدة الشهيرة «السفينة النشوى»: ...
«لقد خبرت السماوات المنصدعة فى بروق؛ خبرت المساء، والفجر الطالع كأنه رهط من الحمائم، ورأيت أحياناً كل ما ظن الإنسان أنه رآه!».

ووصل رامبو فى دراسته إلى السنة النهائية التى تؤهله للحصول على البكالوريا، ولكنه كان قد قرر بدء حياته كشاعر، فعمد إلى إرسال مجموعة من قصائده إلى أحد أقطاب المدرسة الحديثة فى الشعر الفرنسى وقتذاك وهو «بول فيرلين»؛ الذى قرأ أشعار رامبوا وأدرك على الفور أنه أمام ظاهرة جديدة فى الشعر الفرنسى، فأرسل يستدعيه إلى باريس وبدأ يبشر بعمله فى الأوساط الأدبية هناك. وقد دهش فيرلين أن يرى تلك العبقرية الناضجة تتمثل فى ذلك الصبى النافر المتوحش الذى رآه ينتظره فى بيته. وقدمه فيرلين إلى كبار الشعراء فى أيامه، ومنهم «هيريديا» و «فيكتور هيجو» الذى أطلق عليه لقب «شكسبير الصغير». ويرتبط رامبو وفيرلين ارتباطاً وثيقاً جعلهما لا يطيقان الافتراق، وتبدأ بذلك تلك المأساة القاتمة فى حياة الشاعرين، التى ألقت بهما فى سلسلة لا تنتهى من التشرد والضياع والصعلكة فى العديد من البلاد الأوروبية. فحين ضاق رامبو ذرعا بباريس، دفع فيرلين إلى السفر معه إلى بلجيكا والتنقل بين مدنها، ثم توجها إلى لندن وتعيّشا من

تدريس اللغة الفرنسية. وكلما كان رامبو يقرر العودة إلى شارلفيل، يعود فيرلين إلى زوجته البائسة، كيما يهجرها ثانية عند أول إشارة من رامبو، ويلحق به فى المكان الذى يتشرد فيه من جديد. وكان الشاعران يقضيان وقتهما فى الشجار على كل شىء، إلى أن بلغ الأمر بفيرلين أن أطلق الرصاص على رامبو فى فندقهما ببروكسل، ،لما هدده بالقتل مرة أخرى اضطر رامبو إلى استدعاء الشرطة. وانتهى الأمر بالحكم على فيرلين بالحبس سنتين فى سجون بلجيكا. وتوجد الآن لوحة فى أحد مبانى العاصمة البلجيكية تشير إلى أن هذا المبنى كان قديماً الفندق الذى شهد واقعة إطلاق النار بين الشاعرين الشهيرين.

ويعود رامبو إلى أحضان عائلته فى شارلفيل، مختتماً بذلك علاقته مع فيرلين، التى سجلها حديثاً تسجيلاً أميناً فيلم «الخسوف الكلى» الذى قام فيه الممثل ليوناردو دى كابريو (الذى اشتهر بعد ذلك عند تمثيله دوره المعروف فى فيلم تيتانيك) بدور رامبو، فأحسن تصويره بكل تمرده وجنونه وشذوذه. ويقوم رامبو فى شارلفيل بكتابة آخر ما خطته يداه من إبداع أدبى، وهو كتابه من النثر الشعرى المسمى «فصل فى الجحيم»، الذى طبعه على نفقته فى بلجيكا، ولكنه لم يكتشف إلا بعد وفاته، حيث احتجز الناشر نسخة لديه بعدما عجز الشاعر أن يدفع له حقوقه. ومع آخر

حرف من ذلك الكتاب، يطلّق رامبو الشعر والأدب، ولا يسمح لأحد أن يحدثه فيهما، ويبدأ حياة من الأسفار والمغامرات، متنقلاً ما بين شارلفيل ومدن أوروبية كثيرة، ثم أصقاع نائية فى الشرق الأقصى على ظهر سفن تجارية وحربية. وفى إحدى تلك الرحلات، تمر به السفينة على ميناء عدن، التى تترك فى نفسه انطباعاً ساحراً، فيقرر بعد ذلك السفر إلى هناك، حيث يبدأ آخر طور من حياته، طور التاجر الثرى.

ويقضى رامبو سنواته المتبقية فى قبرص أولاً، ثم ما بين عدن وهرر بالحبشة ومدن أخرى فى المنطقة مثل زيلع وتاجورا وجيبوتى والأوجادين. ونحن نعلم تفاصيل حياته وأعماله فى تلك السنوات من مجموعة رسائله التى جمعتها دار نشر جاليمار فى طبعتها عن الأعمال الكاملة لرامبو. ويستبين من تلك الرسائل أنه كان يقوم بالعمل فى مجالات توريد العمال، والتجارة فى البن، ثم فى الأسلحة فى الحروب القبلية التى كانت تدور فى الحبشة. وقد زار القاهرة والإسكندرية أكثر من مرة خلال تلك الترحالات، حتى أنه كان على وشك العمل مفتشا فى جمارك الإسكندرية لولا أنه لم يطق الانتظار لإتمام الأوراق. كذلك نعلم أنه قد أودع ما كان يحمل من أموال ذهبية فى مصرف الكريدى ليونيه فى حى الغورية بالقاهرة كوديعة لستة أشهر بفائدة ٤ ٪!. ولكن أغرب

ما تحويه تلك المراسلات هى خطابه - عام ١٨٨٣ حين كان فى هرر - إلى مكتبة هاشيت بباريس يطلب منها أن توافيه بأفضل ترجمة متوفرة لديها للقرآن الكريم إلى الفرنسية، على أن تكون الترجمة مصحوبة بالنص العربى الأصلى إن أمكن ذلك. ويعلق محرر الكتاب على ذلك بأن «ذلك الطلب جدير بالاهتمام. فقد تغلغل رامبو فى روح السكان المحليين، إلى الحد الذى يقال معه أنه قد اعتنق الإسلام. وكان يقرأ القرآن بينما يتحلق من حوله جماعات صغيرة يقوم بشرح الكتاب القدسى لهم». كما تذكر أخته فى رسالة لها أنه توفى فى مستشفى مرسيليا وهو يردد عبارة «الله كريم».

ولقد كانت هذه العبارة ترن فى وعيى وأنا أتجول فى متحف رامبو بشارلفيل. ويضم المتحف العديد من مخطوطاته الأصلية، وكثير من معدات سفره ومنها حقيبته الأفريقية، بالإضافة إلى العديد من صوره الأصلية، ونص قصيدة المركب النشوان وإنما بخط بول فيرلين. كذلك يعرض المتحف الطبعات الأولى لكتبه والعديد من الكتب التى صدرت عنه والترجمات المختلفة التى نشرت لأعماله. كل ذلك وسطور القصيدة الخالدة تهيمن على كلِ شىء... «ولكن، حقاً، لقد بكيت بما فيه الكفاية؛ لكم يصدع الفجر الفؤاد؛ كل الأقمار مريعة وكل الشموس مريرة؛ لقد أفعمتنى آلآم الحب بأخدار مسكرة؛ آه فلينحطم قاعى! آه فلأغرق فى الأعماق!».

ولم يكن رامبو يدرى وهو فى غمرة تجارته الأفريقية أنه قد غدا شاعراً مشهوراً فى فرنسا؛ فبعد أن أصدر فيرلين كتابه المسمى الشعراء الملعونين وأفرد جانباً منه لرامبو وشعره الجديد، هلل له النقاد واعتبروه من مؤسسى الشعر الرمزى الجديد. وبعد أن توفى رامبو عام ١٨٩١ بداء سرطان العظام الذى أدى إلى بتر ساقه، طلبت أخته إيزابيل من فيرلين أن يعرض على الأسرة أشعار رامبو الكاملة التى كان يعتزم نشرها، كيما يحذفوا منها ما لا يروق لهم. ولكن فيرلين يتجاهل طلبها، وينشر الأشعار الكاملة لرامبو قبل أشهر قليلة من وفاته هو نفسه. والآن «لا يوجد محب للشعر الإنسانى دارس له فى أى مكان من العالم إلا ويعرف اسم رامبو، إنه شاعر مهم وموهوب، وأشعاره تزداد تألقاً مع الأيام، ويجتهد الباحثون فى تقديم تفسير لها كلما ظهرت مناهج جديدة للبحث فى الشعر ودراسته» (رجاء النقاش) . وهكذا بقيت تلك الأشعار منارا يسير على هديه الشعراء من كل حدب وصوب، ومنهم الشعراء العرب الذين احتفوا برامبو وشعره، بل وقد قرأنا أن عدداً من كبار شعرائنا المصريين قد احتفلوا منذ سنوات بالشاعر بأن زاروا الأماكن التى عاش فيها فى أفريقيا، إحياء لذكراه واحتفاء بهذا الشاعر العظيم الذى أضاف الكثير إلى الضمير الشعرى العالمى.

كاليفورنيا
تحرق كتب
جون شتاينبك

فى عام ١٩٣٩، أصدر الروائى الأمريكى جون شتاينبك أهم أعماله قاطبة، وهى رواية «عناقيد الغضب» وقد أثار محتوى هذه الرواية عاصفة من الغضب والاحتجاج على كاتبها إلى الحد الذى جرى معه إحراق نسخ من الكتاب - جنبا إلى جنب مع روايتين أخريين لنفس الكاتب هما «عن الفيران والناس» و «المعركة سجال» - تعبيرا عن السخط عليه. وقد تم هذا العمل التخريبى فى عقر دار الكاتب، وهى بلدة ساليناس بكاليفورنيا. ولم يقتصر الأمر على هذه الهمجية الحضارية. بل إن أصدقاء شتاينبك نصحوه بالحذر من أن يعمد شانئوه إلى محاولة تلفيق اتهامات باطلة له، كأن يدسوا له المخدرات ويتهموه بحيازتها، فضلا عن محاولات اغتياله. وقد اتهمه كبار ملاك الأراضى فى كاليفورنيا وأثر ياؤها بأنه تعمد فضحهم بالمبالغة فى وصف سوء أحوال العمال الزراعيين الذين

كانوا يئنون تحت وطأة الكساد الاقتصادى الذى اجتاح أمريكا فى الثلاثينيات عقب كارثة ١٩٢٩ المالية. وقد ركزت رواية عناقيد الغضب على محنة فئة معينة هى «عمال التراحيل» الذين نزحوا من أنحاء الولايات، خاصة أوكلاهوما، بحثا عن عمل فى كاليفورنيا ذات الأراضى الخصيبة، فوقعوا فى براثن كبار الملاك وممثلوهم الذين استغلوا أولئك العمال أسوأ استغلال واستثمروا جهودهم لقاء ملاليم معدودات لا تقيم الأود، حتى أن الكثيرين ماتوا جوعا وتشتت شمل الأسر تحت وطأة الفقر المدقع فى بلد الخصب والثراء. وهذا كله مثلته الرواية خير تمثيل، فقد جهز شتاينبك لمادتها ثلاث سنوات كاملة، صاحب خلالها أولئك العمال فى حياتهم وتجوالهم بحثا عن عمل، ورأى بعينيه مدى تدهور أوضاعهم ومدى الاستغلال الذى يتعرضون له. وقد أثارت الرواية، والفيلم الذى أعد عنها ومثل فيه هنرى فوندا أحد أروع أدواره، تحقيقات فى الكونجرس الأمريكى أيدت صحة ما رواه شتاينبك عن أحوال العمال، وأدت الى سن تشريعات جديدة لتحسين أوضاعهم والحفاظ على حقوقهم.

بيد أن كل ما لاقاه جون شتاينبك من ردود فعل عنيفة على كتاباته الواقعية الصرف، لم يمنع تقدير العالم له، فقد حصل فى النهاية على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٢، كذلك لم يمنع من

إحـلاله المحل اللائق به فى وطنه بل وفى بلدته التى سـبق أن هاجمته وأحرقت كتبه، فقد أقامت ساليناس «مركز جون شتاينبك» و «مكتبة شتاينبك» اللذين أصبحا مجمعا يقوم على تعزيز دراسة أعمال الكاتب وإحياء تراثه، وذلك بالإضافة إلى افتتاحها، حديثا فى ٢٧ يونيو ١٩٩٨، متحفا كبيرا يضم كل ما يتعلق به، استمر التخطيط له وإقامته عشرين عاما وتكلف عشرة ملايين دولار. ولما كانت ساليناس تضم أيضا منزل مولده وفيها القبر الذى يؤوى رماده، فهى قد أصبحت بذلك قبلة محبى شتاينبك والسائرين على خطاه.

وقد ولد جون شتاينبك (وينطق لقبه ستاينبك بأمريكا) فى ٢٧ فبراير ١٩٠٢ فى ساليناس حيث قضى طفولته ودرس فى مدارسها حتى عام ١٩١٩. وتذكر أمه أنها قالت ذات مرة وهو صبى إن جون إما أن يصبح عبقريا أو لا يكون شيئا بالمرة. وقد غير مسار حياته كتاب «سيرة الملك آرثر» لتوماس مالورى، إذ وضع فى ذهنه أن يعمل على تسجيل تاريخ عصره بصورة قصصية على نحو ما فعل ذلك الكتاب بالنسبة للعصور الوسطى. ولهذا، حين التحق بعد ذلك بجامعة ستانفورد، التى قضى بها ست سنوات ولم يتخرج فيها، ركز اهتمامه على دراسة المواد التى تعينه على أن يصبح قصصيا. ورغم أنه كان يدرس العلوم الإنسانية بصفة

عامة، إلا أنه تقدم لدراسة الطب وعلوم التشريح لمدة عام، معللا ذلك برغبته فى دراسة الكائن البشرى الذى سيكتب عنه بعد ذلك! وقد وضع ذلك الهدف نصب عينيه على الدوام ولم يحدْ عنه، فبعد أن هجر دراسته الجامعية، عمل فى حرف متنوعة، إلى أن عهد اليه العناية بقصر ريفى منعزل، فساعده ذلك على التفرغ للكتابة، حيث أنتج أول رواياته فى الفترة من ١٩٢٩ الى ١٩٣٥، وهى على التوالى: القدح الذهبى، مراعى السماء، إلى إله مجهول. وقد تعرف فى ذلك الوقت على زوجته الأولى كارول التى ساعدته على طباعة مخطوطات رواياته لتقديمها للناشرين وكان يعيش على مصروف شهرى يقدمه له والده، بالإضافة لأى مرتب تحصل عليه زوجته من عملها. ولم تحظ رواياته الأولى بنجاح كبير، إلى أن التفت إلى موطنه كاليفورنيا بكل اتساعها وتنوعها، واهتم بحياة العمال وأمانيهم وصراعهم من أجل البقاء. وبعد ذلك أخرج عددا من الروايات بتلك الخلفية، أولاها «تورتيلا فلات» (١٩٣٥) التى لفتت إليه أنظار القراء والناشرين على حد سواء. وكان أن تعاقدت معه الصحف لكتابة مقالات عن الموضوعات التى تهم الناس فى تلك المنطقة. وكانت تلك المقالات بداية التفكير فى رائعته «عناقيد الغضب»، التى سبقها ومهد لها روايتان أخريان من روائع شتاينبك تنسجان على نفس موضوع حياة الفقراء

والمطحونين فى دوامة الحياة الأمريكية التى يسيطر عليها الأغنياء وكبار الملاك، وهما روايتا «المعركة سجال» (١٩٣٦) و «عن الفيران والناس» (١٩٣٧). ثم اكتملت الثلاثية بصدور عناقيد الغضب فى عام ١٩٣٩.

ورغم ثورة أصحاب الأراضى على تلك الرواية وعلى مؤلفها واتهامهم إياه بالمغالطة وتبنى المبادئ الهدامة، فإن قيمة شتاينبك الأدبية والفنية استطالت بها وأصبح يعد من كبار الأدباء فى أمريكا. وبينما كان إرنست همنجواى وسكوت فتزجيرالد وغيرهم يجولون فى فرنسا وإسبانيا ويكتبون عن حياة الأمريكيين فى أوروبا، استقر شتاينبك فى موطنه وتفرغ لفنه، وكتب عن مشاكل قومه وبلاده وأهلها من الفقراء والمستضعفين، فاكتسب بذلك احترامهم واحترام القراء. ولئن كان همنجواى قد أثر على الرواية الأمريكية من حيث الشكل والتكنيك الفنى، فإن شتاينبك قد أثر فيها بصورة رئيسية من حيث المحتوى والمضمون. وقد تأكدت قيمة الرواية بحصولها على جائزة بولتزر، أسمى الجوائز الأدبية الأمريكية، لعام ١٩٤٠، وبوصولها إلى عامة الناس عن طريق تحويلها إلى فيلم سينمائى تم ترشيحه لعدة جوائز أوسكار. وقد دفعت له هوليوود خمسين ألف دولار ثمنا للقصة. وقد انغمس شتاينبك بعد ذلك - كيما يتشاغل عن الضجة التى أثارتها روايته -

فى أعمال سينمائية فى هوليوود خاصة بقصصه، وأصبح صديقا مقربا من سبنسر تراسى وجون هيوسيتون وشارلى شابلن.

ومن المؤسف أن تحسن أحوال شتاينبك المالية قد أثر على زواجه من كارول التى لم تتحمل التغير الشديد فى أوضاعهما، وانتهى الأمر بطلاقهما فى عام ١٩٤٢؛ وتزوج شتاينبك بعد ذلك بعام من فنانة عرفها فى هوليوود هى جويندولين كونجر، وأنجب منها ولديه الوحيدين توم وجون. وقد شارك الكاتب فى الحرب العالمية الثانية بالعمل مراسلا لصحيفة هيرالد تريبيون، مما أتاح له أن يشهد العمليات العسكرية عن كثب، وقد ألهمته تلك الفترة مسرحيته المعروفة «مغيب القمر» التى نالت نجاحا كبيرا، والتى ترجمت إلى العربية وعرضت على مسارحنا إبان ازدهار الستينيات المسرحى. وتتوالى رواياته وكتبه، تبنى صرحا أدبيا وطيدا، فقد أصدر رواية «كانيرى رو» وهى عن الحياة فى منطقة خليج كاليفورنيا وعن علم الأحياء المائية، الهواية التى عشقها وأمضى أوقاتا طويلة فى دراستها مع صديقه المفضل «إد ريكتس». وأصدر أيضا «الجوهرة» (١٩٤٧) و «يوميات روسية» (١٩٤٨).

وقد شهد عام ١٩٤٨ طلاقه من زوجته الثانية، ووفاة صديقه ريكتس فى حادث سيارة، وانتخابه عضوا فى الأكاديمية الأمريكية للآداب. وكعادته، أغرق شتاينبك همومه بالانغماس فى الأعمال

السينمائية؛ فبعد إخراج فيلم «المهر الأحمر» عن قصته بنفس الاسم. انهمك الكاتب فى إعداد سيناريو أحد أعظم الأفلام الأمريكية وهو يحيا زاباتا»، الذى طلبه منه المخرج إيليا كازان. وقد توفر شتاينبك على تجهيز السيناريو بالقراءة عن الثورة المكسيكية، وعن الشخصيات السياسية التى عاصرتها، وعن حياة زاباتا ورفاقه، وسافر إلى المكسيك لدراسة بيئة الفيلم على الطبيعة، والاستماع إلى القصص الشعبية الشفهية التى يتداولها عامة الشعب المكسيكى عن زاباتا، وساعده فى ذلك تمكنه من اللغة الإسبانية، ثانى اللغات انتشارا فى الولايات المتحدة. وقد مهّد للسيناريو الفعلى بكتاب قصصى تاريخى عن زاباتا وثورته عنوانه «زاباتا، النمر الصغير». وهذا الكتاب كان يعد مفقودا الى أن تم العثور على نسخة منه فى الأرشيف السينمائى لجامعة كاليفورنيا ونشر لأول مرة عام ١٩٩١ . أما الفيلم فقد تم إنتاجه عام ١٩٥٠، وتقاسم بطولته مارلون براندو وأنتونى كوين مع الممثلة جين بيترز فى دور زوجة زاباتا. ونجح الفيلم نجاحا كبيرا حتى فى أمريكا الرأسمالية رغم توجهه الثورى الواضح وانحيازه إلى صف الفقراء من الفلاحين المعدمين ومطالبته بالعدالة الاجتماعية للشعوب. وقد تركزت الأضواء فى مصر على هذا الفيلم غداة قيام ثورة ١٩٥٢ وتسليط الضوء على أوجه الشبه بين المجتمع المصرى والمجتمع المكسيكى آنذاك.

وقد تعرف الكاتب خلال فترته السينمائية تلك على زوجته الثالثة والأخيرة «إيلين»، وهى الزوجة السابقة للممثل المشهور زخارى سكوت، وقد تزوجها شتاينبك عام ١٩٥٠ وأقاما فى نيويورك فى منزل بمنطقة «لونج أيلاند» يطل على المحيط الأطلسى؛ وكان يقول إنه بذلك قد ملك بلاده من أطرافها، من كاليفورنيا المطلة على المحيط الهادىء إلى نيويورك فى الطرف الشرقى من القارة. ثم قضى شتاينبك عامين فى كتابة ملحمة قصصية جديدة عن تاريخ أسرته بأجيالها الثلاثة فى كاليفورنيا، وكان عنوانها الأصلى «وادى ساليناس»، ولكنها أصبحت فى النهاية الرواية الشهيرة «شرقى عدن»، التى سرعان ما تحولت أيضا الى فيلم سينمائى قام ببطولته جيمس دين.

ثم يسافر الكاتب بصحبة زوجته إلى أنحاء كثيرة من العالم، حيث كان ينظر إليه بوصفه ضمير أمريكا الحى؛ وأفاد هو بالتعرف على الحضارات والثقافات العالمية المختلفة. وبعد أن عاد من سنوات الترحال، شعر أن المجتمع الأمريكى يمر بمرحلة تغيير جذرية، لذلك فقد ابتاع شاحنة قديمة أسماها «روسينانتى» باسم حصان دون كيخوته، واصطحب معه كلبه شارلى فى جولة بولايات أمريكا الغربية، كان نتاجها كتاب «رحلات مع شارلى». وبعد عودة شتاينبك من تلك الرحلة بوقت قصير، علم من التليفزيون بنبأ حصوله على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٦٢ . وقد

جدد فوزه بالجائزة العالمية عداء نقاده، الذين هاجموه بضراوة أثرت فى نفسية الكاتب الكبير إلى حد أنه لم يعد إلى كتابة القصص بعد ذلك، وكانت آخر رواياته هى «شتاء السخط» عام ١٩٦١ . بيد أن سطوع نجمه على الساحة العالمية بعد نوبل أفسح له المجال إلى البيت الأبيض، حيث أصبح صديقا للرئيس كنيدى، ثم جونسون من بعده، حيث كان يعد له خطبه الهامة. ويبدو أن اتصاله بجونسون هو الذى مهد للتحول الفكرى الجذرى الذى مر به شتاينبك فى سنواته الأخيرة؛ إذ أن هذا الكاتب الثورى، صاحب كتب الاحتجاج الاجتماعى، خرج على إجماع المثقفين والثوريين بمناصرته لتدخل أمريكا فى فيتنام. وقد كان يدافع عن موقفه ذاك بأنه كان دائما يعبر عما يؤمن به، حتى وإن خالف ذلك رأى الأغلبية.

ولكن كل المعارك الفكرية والفنية التى خاضها شتاينبك لم تؤثر فى قيمته ككاتب عظيم، فعند وفاته فى ديسمبر ١٩٦٨، كانت كتبه هى الأكثر انتشارا ومبيعا، كما أصبحت كتبه التى حرقتها كاليفورنيا يوما ما، من الأدب الكلاسيكى المقرر على طلبة المدارس والكليات. وكما ذكرنا فى أول المقال، أنفقت بلدته «ساليناس» عشرة ملايين دولار لإقامة متحفه فى مبنى عصرى ضخم، لا يبعد كثيرا عن الساحة التى حرقت فيها كتبه عام ١٩٣٩!


دولتان تتنازعان
أعظم فنان
فى القرن العشرين

عندما قيل لبيكاسو إن الناس لا تفهم التكعيبية التى ابتدعها فى رسمه، أجاب بأن ذلك ليس له معنى، فهو مثلا لا يفهم اللغة الصينية، ولكن ذلك لا يمنع وجودها واستخدام الناس لها.

وربما كان بيكاسو هو الشخص المفرد الذى كان له أكبر أثر فى الفن الحديث، فقد ترك بصماته الواضحة على كل مناحيه، وهو رائد المذهب التكعيبى فى الرسم مع صديقه جورج براك، ولكنه كذلك فنان متعدد المواهب، فهو رسام ونحات وخزّاف بل وكاتب أيضا. ورغم أنه أشتهر بالتكعيبية، فقد ضرب إنتاجه بسهم فى كل مجال وكل مذهب فنى، حتى أن هناك لوحات يدهش المرء أن يعلم أنها بريشة بيكاسو لقدر ما هى بعيدة تماما عن التجريد والتكعيب. وبيكاسو الإنسان ظاهرة لوحدها، فهو قد اشتهر بتعدد علاقاته النسائية بالزواج وغير الزواج، وتعدد منازله ومحال سكنه؛

وهو فى كل مرة يتزوج أو يقيم علاقة دائمة مع إحدى حبيباته، يغير مكان إقامته إلى مسكن أو فيلا جديدة، ثم يخط لنفسه اتجاها فنيا جديدا يواكب حياته العاطفية الجديدة ويتخذ من شريكة حياته إلهاما للوحاته. ولهذا فقد خلّف بيكاسو وراءه ثروة هائلة لا يمكن حصرها من الأعمال الفنية، واسما شهيرا استثمره ورثته فى أعمال تجارية تراوحت من طبع لوحاته على قمصان «تى شيرت»، وبارفان ابنته بالوما بيكاسو، إلى ما سمعناه أخيرا من اعتزام شركة ستروين الفرنسية إنتاج سيارة جديدة تحمل اسم بيكاسو! ولكن ما يهمنا ذكره فى هذا المجال هو أن هناك ثلاثة متاحف مخصصة له وحده، اثنان فى فرنسا وواحد فى برشلونة بإسبانيا.

وبيكاسو تتنازعه دولتان هما إسبانيا وفرنسا، الأولى بحكم مولده وأسرته وفترة صباه، والثانية بحكم إقامته وميوله وهواه. فقد ولد بابلو رويث بيكاسو فى أكتوبر ١٨٨١ فى مدينة مالقة (مالاجا) فى الجنوب الإسبانى، وهى مدينة عربية أصيلة، بقيت تحت حكم العرب أكثر مما بقيت تحت حكم الإسبان، وما تزال بها آثار عربية تشهد على حضارة عظيمة وفن أصيل. وكان أبوه أستاذا للرسم فنشأ بيكاسو نشأة فنية خاصة، تعلم فيها كيف يلهو بالأقلام على الورق قبل أن يتعلم المشى أو الكلام. وتلقى تدريبه المبكر على الرسم من أبيه، وفى المدارس التى التحق بها، فى مالقة ثم فى

برشلونة التى انتقلت الأسرة إليها فى ١٨٩٥ . ويحكى أن والده ترك له لوحة كان يرسمها كيما يتمها، ولما عاد ورأى ما فعله الصبى، بهره عمله فأعطاه كل أدوات الرسم التى يملكها وعهد إليه بالرسم بدلا منه، ولم يعد إلى الرسم مطلقا بعد ذلك. ثم يتلقى بيكاسو تعليما عاليا فى مدرسة الفنون الجميلة ببرشلونة، وبعدها فى كلية سان فرناندو الشهيرة بمدريد. وفى العاصمة، شاهد ودرس لوحات الأساتذة العظام فى متحف البرادو: جويا، فيلاسكيث، الجريكو، وغيرهم من أساطين الرسم.

ثم يقضى بيكاسو السنوات من ١٩٠١ الى ١٩٠٤فى سفر متواصل ما بين باريس وبرشلونة، إلى أن قرر أخيرا الاستقرار فى باريس نهائيا واتخاذها موطنا ثانيا له. وقد عاش بيكاسو فى حى مونمارتر مع ثلة من الفنانين الإسبان من زملائه، ومنهم الشاب غريب الأطوار شارل كاساجيماس الذى أنهى حياته بالانتحار فى أحد المقاهى لفشله فى حبه، وهو الحادث الذى ترك أثرا بالغا فى نفس صديقه بيكاسو. وقد عانى الفنان من الفقر وشظف العيش وهو يجاهد فى سبيل فنه، ومرت عليه أيام لم يكن يجد فيها ما يأكله، بل كان يقضى أياما فى الفراش تحت الأغطية لأنه وأصدقاؤه لا يملكون ثمن التدفئة! وقد تعرف فى باريس على أقطاب الفن والشعر والأدب، وأصبح من أصدقاء جورج براك وجييوم أبولينير

وأندريه بريتـرون وماكس جـاكـوب. ويطلق نقاد الفن اسم المرحلة الزرقاء على لوحات بيكاسو في الفترة ١٩٠١ ١٩٠٤، وهي تتميز بالواقعية والتعبير عن الموضوعات الحزبية والتشاؤم؛ تتبعها المرحلة الوردية من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٦ التي عمد بيكاسو فيها إلى تصوير أفراد السيرك والفرق الفنية المتجولة، فكان نتاجها لوحات المهرجين والبلياتشو والبهلوانات. وكانت أول صديقة دائمة للفنان في تلك السنوات العجاف هي فرناند أوليفييه التي عاش معها من ١٩٠٥ إلى ١٩١٢.

ويتعرف بيكاسو على جرترود شتاين وأخيها، وكانا من أكبر رعاة الفنانين والأدباء في باريس. وجرترود هي التي ساعدت الكثير منهم في فترات كفاحهم الأولى، ومنهم همنجواي. وقد تحمست لبيكاسو واشترت هي وأخوها بعض لوحاته بأثمان عالية بحساب ذلك الوقت، وكان ذلك بداية عهد بيكاسو باليسر المادي. ثم يلتفت أكبر متعهدي اللوحات الفنية في باريس وقتها، أمبرواز فولار، إلى أعمال بيكاسو فيشتري الكثير منها ويعرضه ويبيعه في صالته المشهورة، ومنذ ذلك الوقت يصبح بيكاسو معروفا بلوحاته ومنحوتاته وتصاويره، ويبدأ مشواره الجاد في البحث عن التجديد الفني، ويأتيه الإلهام من زيارة متحف التروكاديرو الذي كان يضم مجموعة ضخمة من الفن الإفريقي البدائي، ويتأثر بيكاسو كثيرا

بالأقنعة الإفريقية التى يشاهدها. وبهذه الخلفية، يرسم الفنان لوحته الجديدة «فتيات آفينيون» عام ١٩٠٧، التى كانت نقطة فارقة فى أسلوبه وحملت الكثير من التأثيرات الإفريقية والتجريد وبدايات التكعيبية، وقد اضطر بيكاسو إلى نبذها، ولكن إلى حين، نتيجة ثورة زملائه الفنانين عليها.

وفى عام ١٩٠٨، وبدون اتفاق سابق، يرسم كل من براك وبيكاسو، منفصلين، لوحات بأسلوب جديد تماما. وقد لاحظ «ماتيس» أن لوحات براك تتكون من «مكعبات صغيرة»، ومن هنا تناول النقاد تلك العبارة لوصف ما أتى به براك وبيكاسو فى وقت واحد تقريبا، وأطلقوا على ذلك الأسلوب الجديد اسم التكعيبية. وقد عمل الرسامان لفترة تالية لذلك الاكتشاف فى تعاون وثيق أنتج أعظم أعمال المذهب الجديد الأولى. وتشهد السنوات التالية نشاطا محموما لفناننا، من بينه وضع الرسومات المصاحبة لكتب أصدقائه الأدباء، فرسم لأبولينير وماكس چاكوب وجان كوكتو الذى قدمه لفريق الباليه الروسى الذى تعرف عن طريقه بدياجليف ونجنسكى وسترافنسكى، بيد أن أهم حدث فى تلك المرحلة هو تعرفه على أولجاكوخلوفا، إحدى راقصات الباليه الروسى، وزواجه منها عام ١٩١٨، وبعد الزواج تغيرت طريقة معيشته، وانتقل إلى شقة رحيبة فى شارع «بويسى» الراقى، وانتهج

أسلوب الطبقة البورجوازية إرضاء لزوجته. ولوحته المعروفة لأولجا تعود إلى الأسلوب الطبيعى للرسم، وإن كانت تتميز بدفق التعبير وأصالة التشكيل. وقد ثار عليه أصدقاؤه واتهموه بالزيف الفنى، ولكنه كان يرد بأنه لا يتبع أى مذهب وإنما يرسم ما يراه بإملاء من عاطفته وذهنه، وفى عام ١٩٢٥ يفاجئ الجميع بلوحته «الرقصة» التى ينهج فيها أسلوبا تجريديا خالصا جعل النقاد يلحقونه بالحركة السيريالية التى كان يقودها «أندريه بريتون» فى الأدب، والذى سرعان ما نشر صورة للوحة بيكاسو «فتيات آفينيون» فى «الثورة السيريالية» مما جعلها على كل لسان.

وقد مر بيكاسو بحالة ضيق شديد من جراء الرتابة والجمود والرقابة التى كانت تفرضها عليه زوجته نتيجة غيرتها عليه، حتى أنه كتب قصائد من الشعر الغنائى ينفس بها عن نفسه، ونشرت فى مجلة «كراسات فنية». وانتهى به الأمر الى الانفصال عن أولجا، لتدخل حياته بعد ذلك «مارى تيريز والتر» التى أنجب منها ابنته «مايا». وفى عام ١٩٣٧ تعهد إليه حكومة الجمهوريين فى إسبانيا رسم لوحة لمعرض باريس الدولى، فيختار بيكاسو موضوع أهوال الحرب الأهلية الإسبانية، فيرسم رائعته «جرنيكا» عن البلدة الباسكية فى شمال إسبانيا التى قصفتها طائرات ألمانيا وإيطاليا وقتلت وجرحت آلاف من سكانها المدنيين. وقد استأجر الفنان مرسما ضخما فى شارع «جران أو غسطين» فى قلب باريس

لرسم هذه اللوحة الضخمة التى طار صيتها فى كل مكان، والتى استقرت مدة طويلة فى متحف الفن الحديث بنيويورك، الى أن عادت الديمقراطية إلى إسبانيا مع الملك خوان كارلوس فعادت اللوحة، حسب وصية بيكاسو، إلى بلاده لتستقر الآن فى متحف الملكة صوفيا بمدريد.

وبعد أن عبرت الفنانة «دورا مار» حياة بيكاسو عدة سنوات، استقر بعد ذلك مع الرسامة الشابة «فرانسواز جيلو» التى عاشت مع بيكاسو من ١٩٤٤ الى ١٩٥٣، وانجبت منه ابنه كلود وابنته بالوما. وكان بيكاسو من بين قلة من الفنانين والأدباء ممن بقوا فى باريس بعد سقوطها تحت الاحتلال النازى، رغم المضايقات والتهديدات التى كان يتعرض لها من الألمان المحتلين الذين منعوا عرض لوحاته فى أى مكان باعتبارها ما كانوا يسمونه بالفن الانحطاطى. وبعد تحرر عاصمة النور، أصبح بيكاسو من المعالم السياحية التى يزورها الناس فى فترة ما بعد الحرب. وقد ألهمته فرانسواز العديد من أعماله، وأقام معها فى فيلا «لا جالواز» ببلدة فالوريس بجنوب فرنسا، وبدأ هناك اهتمامه بفن السيراميك الذى أنتج منه آلاف القطع الفنية. وبعد أن انفصلت فرانسواز عنه أصدرت كتابها «حياتى مع بيكاسو» الذى وصفت فيه بالتفصيل السنوات التى قضتها معه، ورسمت له الشخصية التى اشتهرت عنه بعد ذلك:

الفنان المتسلط الأنانى الذى يضحى بكل شئ فى سبيل مشاعره الشخصية، والذى يكره النساء ويعاملهن بقسوة شديدة ولا يتردد فى نبذهن بعد أن يمتص كل ما فيهن من عاطفة وحيوية ونشاط. وقد حاول بيكاسو منع نشر هذا الكتاب دون جدوى، وقد أثر فيه تأثيرا كبيرا.

وعاش الفنان بعد ذلك مع «جاكلين روك» التى عمرّت علاقته بها حتى آخر أيامه، والتى انتقل معها إلى فيلا جديدة سماها «كاليفورنيا» بالقرب من مدينة «كان» الساحلية. ولما كانت زوجته الأولى قد توفيت، فقد أصبح بإمكانه الزواج من جاكلين فى ١٩٦١ ، وانتقلا بعدها ليعيشا فى بلدة «نوتردام دى فى»، وهو المكان الذى توفى فيه فى أبريل ١٩٧٣ عن واحد وتسعين عاما. وقد عمد الفنان فى المرحلة المتأخرة من حياته إلى رسم سلسلة من اللوحات التجريدية تنويعا على لوحات واقعية أو انطباعية معروفة، فرسم لوحاته هو عن «نساء الجزائر» لديلاكروا، و«غذاء على العشب» لمانيه، و «المنيناس» لفيلاسكيز. ويتبدى فن بيكاسو التجريدى على أوضح نحو وأفضله من مقارنة لوحته تلك باللوحات الأصلية.

وكان أول متحف يخصص لبيكاسو هو متحف «أنتيب»، حيث كان يقضى عطلات الصيف هناك ويعمل فى المتحف المحلى

طوال الفترة التى يقضيها فى البلدة. وقد ترك كل ما رسمه هناك للمتحف، الذى انتهز هذه الفرصة ليصبح متحفا لبيكاسو يؤمه الزوار ليروا لوحات للفنان لا توجد فى مكان آخر. ثم يفتتح فى عام ١٩٦٣ أول متحف عالمى لبيكاسو فى مدينة برشلونة، ثانية مدن إسبانيا. وقد خصصت له المدينة قصرا أثريا كبيرا، وضمت فيه ثروة هائلة من اللوحات والتماثيل للفنان، كانت بحوزة صديق بيكاسو وسكرتيره المخلص «خايمى سابارتيس». ولم يخف بيكاسو اغتباطه بتخصيص متحف له فى بلاده، حتى وإن لم يكن ليزوره لأن البلاد لا تزال تحت حكم فرانكو، ولكنه أهدى متحف برشلونة أعمالا كثيرة، منها كل رسومه الأولى فى فترة الصبا. ولهذا فزيارة المتحف تتم على أساس زمنى، يبدأ الزائر فيها بمشاهدة رسومات بيكاسو حين كان فى التاسعة من عمره، ثم يتدرج إلى لوحات الفترة الزرقاء فالفترة الوردية.

أما متحفه الدولى الآخر فهو فى باريس، وقد افتتح فى ٢٨ سبتمبر ١٩٨٥ فى قصر فخيم يعود إلى القرن السابع عشر فى قلب العاصمة الفرنسية. ويضم المتحف عددا كبيرا من اللوحات والتماثيل والسيراميك والرسومات للفنان الكبير، كما يضم عددا آخر من اللوحات التى كان يقتنيها بيكاسو لرسامين آخرين، منها أعمال لسيزان وفان جوخ وماتيس ورينوار و «روسو الجمركى». وكان

يقال إن محتويات المتحف قد قُدمت هدية من ورثة بيكاسو، ولكن الباحث فى الأمر يكتشف أنهم قد قدموا تلك الأعمال مقابل إعفائهم من ضريبة التركات بعد وفاة بيكاسو وتوزيع ثروته السائلة والمنقولة، وكلها فى فرنسا، على ورثته، مما عاد بالفائدة على كل الأطراف، وكسب عالم الفن متحفا جديدا يضم روائع أهم شخصية فنية فى تاريخ الفن الحديث فى القرن العشرين.

العالم يحتفل بكاتب كاسترو المفضل

في عام ١٩٧٧، سأل أحد الصحفيين فيدل كاسترو زعيم الثورة الكوبية عن كاتبه المفضل وكان رد كاسترو أنه إرنست همنجواى. ولما كان كاسترو معروفا بدقة كلامه، وأنه من النوع الذى لا يلقى الكلام على عواهنه، فقد أثار رده هذا دهشة الجميع، لأنه جاء فى وقت كان العداء مستعرا فيه بين كوبا وأمريكا. ولكن هذا الرد يبين أيضا النظرة التى يرى بها الكوبيون هذا الكاتب الأمريكى الشهير حين يقولون عنه: إنه واحد منا. ذلك أن همنجواى قد اتخذ كوبا موطنا ثانيا له، واستقر فيها لمدة ٢٢ عاما متصلة، وأقام فى ضيعته الواسعة التى أسماها «الضيعة الخارجية» بقرية سان فرانسسكو دى باولا، على مبعدة عدة أميال من العاصمة هافانا. وقد تأكد كلام كاسترو عن همنجواى حين ذكر مساعدو القائد الكوبى أنه يحرص دائما على اصطحاب أحد كتب همنجواى معه

فى سفراته، جنبا إلى جنب مع التقارير والمذكرات الحكومية! كذلك كان كاسترو هو الذى قرر تحويل منزل هنمجواى فى هافانا إلى متحف، وذلك بعد شهور قليلة من وفاة الكاتب عام ١٩٦١.

بيد أن أول بيت اقتناه همنجواى فى أمريكا، فى بلدة «كى وست» جنوبى ولاية فلوريدا. وقد سارعت الأوساط الأدبية إلى تحويل ذلك المنزل إلى متحف آخر للكاتب، تنافس به متحف كوبا. وقد اشترى همنجواى منزل كى وست بعد قليل من اختياره تلك البقعة عام ١٩٢٧ كى يقيم فيها مع زوجته الثانية «بولين فايفر» التى تزوجها فى نفس ذلك العام. وكان اسم همنجواى قد ثبت فى عالم الأدب بصدور روايته «وتشرق الشمس ثانية» عن حياته فى باريس ومدريد، والجيل الضائع من المغتربين الأمريكيين فى أوروبا، وتجاربه هناك مع زوجته الأولى «هادلى». وكان همنجواى عند زواجه الثانى يبحث عن مكان مناسب يساعده على إتمام روايته التى اختمرت فى ذهنه عن الحرب العالمية الأولى، والتى صدرت بعد ذلك بعنوان «وداعا للسلاح». وقد دله صديقه الروائى «دوس باسوس» على كى وست فأعجبته واستقر فيها. وكانت كى وست آنذاك مكانا هادئا يعيش فيه حوالى عشرة آلاف نسمة من السكان، يعمل معظمهم فى صيد الأسماك وتهريب الخمور من كوبا، فى زمن «التحريم»، وهو الاصطلاح

الذى يُطلق على الفترة التى حرَّمت فيها أمريكا المشروبات الروحية، ما بين عامى ١٩١٩ و ١٩٣٣ . ولكن الكساد الاقتصادى الرهيب الذى ضرب البلاد منذ ١٩٢٩ واستمر إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية كان له أثر جذرى فى كى وست، إذ نقلت اقتصادها إلى صناعة أخرى هى السياحة. ولما كان همنجواى قد نال شهرة كبيرة بعد قصصه وروايته الأولى، فقد أدرجت شركات السياحة بيته فى عداد المواقع السياحية الجديرة بالزيارة؛ فكان الكاتب يفاجأ بالناس يدخلون عليه الصالون دون إخطار، مما هدد هدوءه وأفسد عليه جمال المكان، واضطره آخر الأمر إلى بناء سور عال حول المنزل ما يزال يراه السياح إلى الآن. وهم يرون أيضا سلالات القطط التى كان يربيها الكاتب فى هذا المنزل، وكان يطلق عليها أسماء نجوم السينما مثل آفا جاردنر ومارلين مونرو وإيرول فلين. وقد شهد هذا المنزل مولد ابنه الثانى من بولين وهو جريجورى. كما شهد من أحداث حياته رحلته الأولى إلى أفريقيا، التى كان نتاجها كتابين هما «تلال إفريقيا الخضراء» والرواية الشهيرة «ثلوج كليمنجارو»، وقد كتبهما همنجواى على المكتب الذى يشاهده الزوار الآن فى المتحف. ويُبرز المرشد للزوار أن همنجواى، رغم وجود آلته الكاتبة إلى جواره دائما، كان يكتب رواياته بالقلم الرصاص، وكان يقيس إنتاجه اليومى بعدد الأقلام

التى يستهلكها، والتى كانت تصل إلى سبعة اقلام يوميا فى المتوسط.

أما الرواية التى خلد فيها كى وست باسمها وشخوصها فهى رواية «الغنى والإملاق» التى صور فيها حياة بطلها «هنرى مورجان»، والتى صب فيها نقمته على ذهاب الهدوء عن كى وست بتحويلها إلى منطقة سياحية، وهو ما أغضب بدوره سلطات البلدة منه، ولكنه كان آنذاك على وشك الانتقال إلى منطقة أخرى مع زوجة جديدة. ذلك أن عام ١٩٣٧ قد حمل الكاتب إلى معمعة الحرب الأهلية الإسبانية، وشارك فيها بالتغطية الإعلامية لصالح الجمهوريين، وأعد الفيلم الدعائى «الأرض الإسبانية» للدعوة لقضية الجمهورية ضد الفاشية. وقد تعرف فى أثناء ذلك على «مارتا جلهورن» التى كانت تغطى أخبار الحرب الإسبانية كذلك، والتى ستصبح زوجته الثالثة. وبعد أن تأكد من عواطفه تجاهها، انفصل عن بولين، وترك منزل كى وست واختار أن يقيم فى كوبا فيما بين رحلاته، إلى أن أقام فيها إقامة ثابتة.

وكانت كوبا أيامها أشبه بالفناء الخلفى للولايات المتحدة الأمريكية، واقعا وروحا، إذ أن الأمريكيين كانوا يعتبرونها واحة لهم يلجئون إليها للراحة والاستجمام، ويستثمرون أموالهم فيها. وترجع صلة همنجواى بكوبا منذ إقامته فى كى وست، التى كانت

لا تبعد عن جزيرة كوبا إلا بمائة ميل فقط. وقد اعتاد همنجواى منذ ذلك الوقت الصيد فى المياه الكوبية، وقضاء أجازاته هناك، خاصة بعد فترات العمل الشاقة. وكان يقيم عند نزوله هافانا فى فندق «العالمان»، الذى لا يزال قائما حتى الآن. وبعد طلاق همنجواى من بولين، تزوج مارتا جلهورنا؛ وقامت الزوجة الجديدة بمهمة البحث عن مكان مناسب لهما. مستعينة فى ذلك بالإعلانات المبوبة، التى هدتها إلى ضيعة واسعة مساحتها حوالى عشرين فدانا، استأجرتها مبدئيا بمبلغ مائة دولار شهريا عام ١٩٣٩، ثم اشتراها همنجواى آخر الأمر عام بمبلغ ١٨٥٠٠ دولار. وقد تابع فيها الكاتب تأليف روايته عن الحرب الإسبانية «لمن تقرع الأجراس»، التى بدأها بعد نهاية الحرب التى تابعها عن قرب. وقد استطالت الرواية بين يديه حتى بلغت ٤٣ فصلا، ونالت نجاحا هائلا واشترتها هوليوود لتصبح فيلما عالميا بطولة جارى كوبر وإنجريد برجمان. وساعدت مكاسب همنجواى من تلك الرواية فى شراء الضيعة وفى عمليات إصلاحها وترتيبها لتلائم طريقة حياة الكاتب واستضافة معارفه وأصدقائه العديدين. وقد جلب همنجواى يخته الخاص المسمى «بيلار» على اسم شفيعة مدينة سرقسطة الإسبانية، ليرابط فى تيار الخليج أمام ضيعته.

ورغم أن زواجه الثالث هذا قد دام خمسة أعوام، إلا أن الزوجين نادرا ما كانا يجتمعان لمدد طويلة، إذ أن مارتا كانت فى

رحلات صحفية مستمرة، وكانت تغرى زوجها بمصاحبتها، مما خلق بينهما منافسة مهنية غير محمودة العواقب. وقد كان آخر التغطيات الصحفية لهمنجواى هو هجوم الحلفاء فى نورماندى بشمال فرنسا، حيث تقدم معهم حتى وصل إلى باريس، حيث قام، على حد تعبيره، بتحرير فندق الريتز الشهير بميدان فاندوم، واستولى على ما به من تموين وفير من الطعام والشراب! وقد مثل همنجواى بعد الحرب أمام محقق عسكرى بتهمة تجاوزه حدود العمل الصحفى إلى أعمال القتال، إلا أنه برئ من التهمة. وقد تعرّف أثناء الحرب على «مارى ولش» التى كانت تغطى الأنباء لمجلتىْ تايم ولايف الأمريكيتين. ولكن هذه المرأة التى أصبحت آخر زوجات همنجواى، كانت أحصف من سابقتها، إذ أنها اعتزلت العمل الصحفى بعد زواجها وتفرغت لرعاية همنجواى.

وقد تزوج الكاتب من مارى ولش فى ١٩٤٥ وظلا معا حتى آخر عمره. وعاشت معه مارى فى «الضيعة الخارجية» بهافانا، ورافقته فى رحلته الثانية الطويلة الى أفريقيا عام ١٩٥٣، التى دامت حوالى خمسة شهور. وقد انتهت تلك الرحلة نهاية سيئة، إذ سقطت الطائرة بالزوجين مرتين فى فترة قصيرة. وكانت الحادثة الثانية خطيرة على صحة الكاتب وهى التى تسببت فى بدء اعتلال صحته الجسمانية والنفسية. وقد طيرت وكالات الأنباء خبر

وفاة همنجواى حين كانت طائرته مفقودة، مما أتاح للكاتب بعد ذلك التندر بالمقالات التى خرجت تنعيه إلى قرائه ومحبيه.

وفى هذه الفترة أيضا كتب همنجواى «عبر النهر وبين الأشجار»، بعد زيارة لإيطاليا، وهى أضعف كتبه، إلا أنه أتبعها برائعته «العجوز والبحر» التى نالت جائزة بوليتزر، وتوجت أعماله بمنحه جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٤ . وقد سلطت عليه الجائزة المزيد من الأضواء، فأصبحت حياته مليئة بالأسفار والزيارات والمقابلات التى لا تنتهى، ولكنه استمتع أيضا باستضافة العديد من أصدقائه فى ضيعته الكوبية، ومنهم آفاجاردنر وسبنسر تريسى ومارلين ديتريش، كما زاره هناك أيضا سارتر وسيمون دى بوفوار. ولما تسلم كاسترو الحكم فى كوبا، كان همنجواى يعد من أنصاره، حتى أن الكاتب دعاه للتحكيم فى مباراة صيد سمك المارلين التى كان يقيمها كل عام؛ وقد لبى كاسترو الدعوة ولكنه أصر على أن يشارك فى المسابقة لا أن يقتصر على التحكيم فيها. وقد فاز الزعيم الكوبى يومها بالجائزة الأولى، وكانت الفرصة الوحيدة التى تقابل فيها الرجلان والتى سجلتها الصور العالمية. بيد أن تطورات الموقف بين كوبا وأمريكا حملت همنجواى لآخر الأمر على الرحيل عن «ضيعته الخارجية»، وهو ما سبب له ألما نفسيا هائلا، تضافرت معه عوامل أخرى أدت إلى سيطرة الوساوس عليه، وأصيب بالبارانويا والاكتئاب الشديد، مما أدى به إلى الإقدام

على الانتحار فى آخر منزل له فى «كيتشوم» بولاية إيداهو، حيث يوجد قبره.

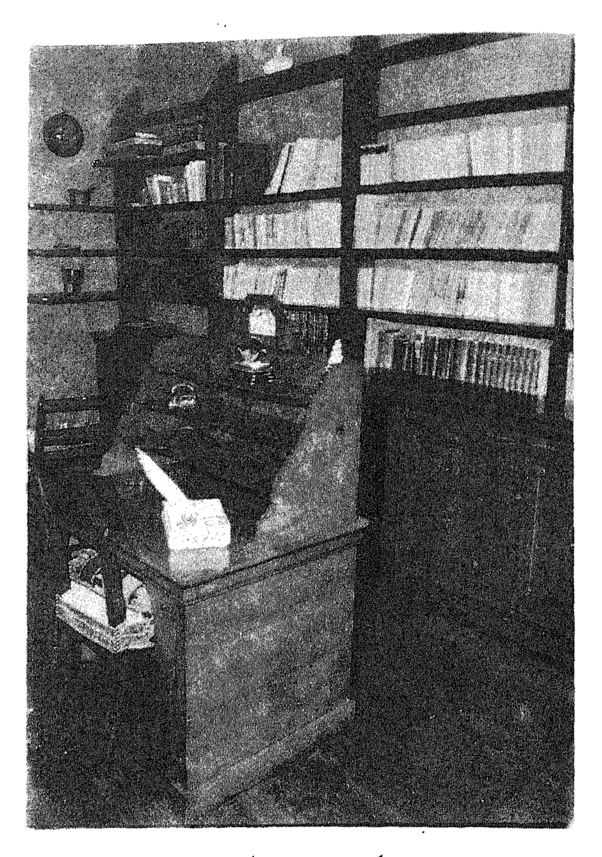
وكانت «الضيعة الخارجية» هى أول متحف رسمى يقام لهمنجواى، حين أبدت حكومة الثورة الكوبية بقيادة كاسترو، كما ذكرنا سابقا، رغبتها فى تحويلها إلى متحف عقب وفاة الكاتب. وقد نجحت مارى ولش زوجة همنجواى فى الذهاب إلى كوبا بإذن خاص من الرئيسين كيندى وكاسترو، واتفقت مع الحكومة الكوبية على أن تأخذ جميع أوراق ومخطوطات الكاتب، على أن تترك الضيعة كيما تصبح متحفا. وقد قدّر لى أن أزور هذا المتحف عام ١٩٧٩ خلال رحلة إلى هافانا فى نطاق عملى فى الأمم المتحدة، فكانت فرصة فريدة للتعرف على الضيعة الخارجية بكل ما تحويه من آثار الكاتب الكبير. ويتكون المتحف من الفيلا الرئيسية، حيث يطل الزائر على غرفها المختلفة دون الدخول إليها، حيث نرى غرفة المعيشة والمكتبة التى تضم رفوفا من الكتب، والمكتب الذى كتب عليه همنجواى بعض روائعه، وعليه نظارته المستديرة، وقد تُرك كل شئ فى الفيلا على حاله حين كان الكاتب وزوجته يقيمون فيها، مما جعل هذا المنزل من المتاحف القليلة التى يشعر فيه الزائر كأن الكاتب ما يزال يقيم فيه، وأنه قد غادر مكتبه وترك نظارته لقضاء أمر ما وسيعود بعد قليل لاستئناف القراءة والكتابة.

وتحتوى غرف الفيلا على رؤوس حيوانات محنطة من التى اصطادها همنجواى فى رحلتيه الإفريقيتين، وعلى «بوف» مصرى اشترته الزوجة من خان الخليلى خلال زيارة للقاهرة عند مرور باخرتهما بقناة السويس عام ١٩٥٣. وتضم الضيعة أيضا البرج السكنى الذى أضافته مارى ولش فى الحديقة كى يخلو فيه زوجها للعمل حين يمتلئ المكان بالضيوف، والذى خصص الطابق الأرضى منه للقطط التى كان همنجواى مغرما بها والتى لم يكن يقل عددها عن الخمسين فى أى وقت. ولا تزال المزرعة التى تحيط بالفيلا تمتلئ بأشجار الفاكهة، خاصة المانجو المتعددة الأصناف، وتنمو فيها الخضروات كما كانت أيام همنجواى. وكانت مارى ولش مغرمة بزراعة شجيرات الورد التى تتناثر فى كل مكان بالمزرعة.

وثمة مكانان آخران يرتبطان بذكريات همنجواى، أولهما بيت والديه فى «أوك بارك» بولاية إلينوى، وهو البيت الذى ولد فيه الكاتب، ويجرى إعداده الآن كيما يفتح أمام الزوار فى يوليو القادم. أما المكان الآخر فهو جناح همنجواى فى مكتبة جون كيندى ببوسطن، حيث أهدت مارى ولش كل ما كان لديها من مخطوطات همنجواى وأوراقه ورسائله إلى المكتبة لتكون فى متناول الباحثين والكتّاب.

وهمنجواى يحظى بمكانة كبيرة لدى القراء العرب، ومعظم كتبه، إن لم يكن كلها، مترجم إلى العربية، بالإضافة إلى كتب عن حياة الكاتب ودراسة أعماله، وأهمها الدراسة الممتعة التى كتبها كارلوس بيكر. كما أن كتاب «بابا همنجواى» لصديقه هوتشنر، الذى كان أول من أذاع أن موت الكاتب كان انتحارا وليس عن طريق الخطأ، ظهر بالعربية بعد قليل من صدوره. وقد قرأ جيلى روايات همنجواى وتأثر بطريقته الفريدة فى استخدام اللغة السهلة الممتنعة، والتى تقوم - فى جملة أمور أخرى كثيرة - على «التواضع فى التعبير» والاستغناء عن المحسنات اللفظية والصفات الكثيرة التى تعطل القارئ عن تتبع الأحداث. ويأتى هذا المقال مواكبا لاحتفال الأوساط الدبية بمئوية همنجواى التى ستحل فى يوليو القادم، والتى سيصدر فيه آخر كتب همنجواى بعنوان «حقيقى من اللمحة الأولى»، وهو نتاج رحلته الإفريقية الثانية، والذى نرجو أن نراه سريعا فى لغتنا العربية.

داعية
حرية المرأة
وحرية الحب



مكتب چورج صائد ومكتبتها

والكاتبة التى نقدمها هنا هى الروائية الفرنسية جورج صاند. التى طرحت تقاليد زمانها فى فرنسا أوائل القرن التاسع عشر. وانتهجت لنفسها حياة حرة تماما من قيود المجتمع والأعراف الاجتماعية. وقد نقمت على الرجل الامتيازات التى يتمتع بها والتى تسمح له بكل شىء، فخلعت عنها ملابس النساء واستبدلت بها سترات الرجال ـ قبل أن يحدث هذا فى النصف الثانى من القرن العشرين. ودخنت السيجار. بل واتخذت لنفسها هذا الاسم الرجالى بعد أن كانت تدعى «أورور ديبان». وقد فعلت كل هذا كى تتمكن من الحياة كالرجال وتغشى الأماكن التى يتردد عليها الفنانون والكتّاب وتجلس معهم فى المقاهى والصالونات العامة التى لم تكن تغشاها النساء. وقد حققت جورج صاند حياتها ككاتبة وخلّفت وراءها تراثا أدبيا ضخما بلغ عند نشره كاملا ١١٢ مجلدا.

وجمعت حولها كوكبة من أدباء العصر وفنانيه، وخلّفت أثرا عميقا في تيار الأدب النسائي الذي جاء بعدها وقد تأثرت بها أديبتنا العربية مَي زيادة، وتأثرت خطاها في صالونها الأدبي الذي جمع زبدة الأدباء والصحفيين العرب. وفي مراسلاتها الضافية مع الكثير من الكتاب والفنانيين في زمانها.

وقد زرت ذات صيف القصر الذي عاشت فيه جورج صاند في وسط فرنسا، بين السهول الخضراء المنبسطة في كل مكان، وهي الضيعة المسماة «نوهان» وحين دخلنا من بوابة القصر الكبيرة، التي وضعوا فيها شباك التذاكر لدخول هذا المزار السياحي الهام. طالعت آذاننا أنغام البيانو يعزف ألحانا شجية للموسيقار البولندي شوبان، فهتفت الأرواح والمشاعر تجاوبا مع هذا الجو الفني الخالص وتبينت أنه من الطبيعي على من يحيا وسط هذا الفردوس الطبيعي أن تجود قريحته بألوان الفنون العذبة، وتذكرت في الحال أمنية ناقدنا الراحل أنور المعداوي في إحدى رسائله متمنيا أن يكون له «جوسق» في حديقة يكتب فيه بعيدا عن ضوضاء الحياة ومشاغلها التي لاتترك للكاتب الوقت ولاتمنحه الإلهام الضروري للإنتاج الفني. وبعد التجوال في هذه المغاني الساحرة حان وقت زيارة مجموعتنا. فقادتنا المرشدة إلى الطابق الأرضي من القصر. وبه غرفة الصالون الرئيسية التي تمتلئ

بأثاثات العصر واللوحات المختلفة للكاتبة وأسرتها ولوحة لآخر مالكة للضيعة وهى «أورور صاند» ، حفيدة الكاتبة، التى توفيت فى ١٩٦١ وبعدها تحول القصر إلى متحف.

وقد توقفت المرشدة بنا طويلا فى هذا الصالون لتقص علينا لمحة سريعة عن حياة صاند وعصرها تعيننا على تذوق ما سنراه فى بيتها. فقد ولدت صاند فى باريس فى ١ يوليو ١٨٠٤ ، لأب عسكرى ارستقراطى كان من ضباط نابليون. وأم من أسرة متواضعة. وقد عرفت الطفلة قصر نوهان منذ نشأتها الأولى، حيث كانت تقضى فترات الصيف هناك لدى جدتها لأبيها. ثم أقامت معها بصفة دائمة بعد وفاة الأب فجأة من جراء سقطة حصان. وكانت الجدة صاحبة الأثر الأكبر فى تكوين حفيدتها، إذ جلبت لها المعلمين إلى القصر، ثم ألحقتها بدير الأغسطينيين فى باريس حيث تلقت تعليمها الأساسى بين عامى ١٨١٧ و ١٨٢٠ . وحين توفيت الجدة، تركت لحفيدتها ضيعة نوهان وثروة صغيرة، وسرعان ما تقدم البارون «كاسيمير ديدفان» للزواج منها فقبلت على الفور نظرا لصغر سنها حيث لم تكن قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها بيد أنها عانت الكثير من إهمال زوجها لها وخياناته المتكررة، ولم يعزيها عن ذلك إلا ابنها موريس وابنتها سولانج. وحدث أن قرأت صاند مصادفة وصية كان زوجها قد

أعدها، ففوجئت بالقدر الكبير من الكراهية والحقد اللذين كان يكنهما زوجها لها، فكانت هذه النقطة الفاصلة فى حياة الزوجة، إذ قررت هجر زوجها وبدء حياة جديدة من الحرية والاعتماد على الذات. وتوجهت للعيش فى باريس بعد أن قررت أن تصبح كاتبة وتعول نفسها عن هذا الطريق، وأخذت تغشى مجالس الكتّاب والأدباء والصحفيين التى كانت تعقد فى المقاهى الباريسية آنذاك، ولهذا فقد عمدت إلى ارتداء ملابس الرجال وتقصير شعرها وارتداء القبعة العالية وتدخين السيجار، حتى أن الكثيرين كانوا يعاملونها كرجل. وتعرفت على عدد من الأدباء، من بينهم «جول صاندو» الذى أصبح أول عشاقها، والذى اشتركت معه فى كتابة رواية «روز وبلانش» التى أصدراها تحت الاسم المشترك «جول صاند» وبعد ذلك، اتخذت الكاتبة اسم جورج صاند لتصدر به أول روايتين لها وهما «إنديانا» و «فالنتين»، اللتين نجحتا نجاحا كبيرا جعل الناشرين وأصحاب الصحف يتهافتون على كتاباتها.

وفى عام ١٨٣٣، تبدأ أولى علاقات جورج صاند مع أحد مشاهير عصرها، حين التقت بالشاعر الرومانسى «ألفرد دى موسيه» ووقعت فى غرامه. وقد جال الكاتبان فى عدد من الأسفار، توجاها برحلة الى المدينة الرومانسية البندقية (فينيسيا) بيد أن تلك الرحلة. التى ألهمت الكاتبة عددًا من رواياتها، انتهت

نهاية سيئة بعد إصابة موسيه بالتيفود واضطراره إلى العودة إلى باريس. وقد انتهت علاقة الكاتبين بعد ذلك، بيد أنها قد أثرت بدورها فى إنتاج الشاعر الكبير. إذ أن عددا من «لياليه» المشهورة هى من وحى حبه لصاند، كما أن روايته «اعترافات فتى العصر» هى عن تلك الفترة من حياته أيضا، وبعد انفصالها عن موسيه، بدأت إجراءات انفصالها القانونى عن زوجها كاسيمير التى كللت بالنجاح بعد كثير من المشاكل فى عام ١٨٣٦، حيث اتفق الطرفان على تقسيم ثروتهما، وكانت ضيعة نوهان من نصيب الزوجة، وقد شهد نفس العام اصطياف صاند فى سويسرا مع الموسيقار العالمى فرانز ليست وصديقته مدام «داجول» وبعدها استضافت الكاتبة الموسيقار وصاحبته فى قصر نوهان وكان «ليست» هو الذى قدم صاند لصديقه الحميم الموسيقار البولندى «فردريك شوبان» وكان شوبان قد بدأ يشتهر فى فرنسا ثم فى أوروبا كلها بعد هجرته من وطنه بولندا فرارا من القمع التى كانت تتعرض له على يد روسيا القيصرية، وكان شوبان أحد ألمع النجوم التى أضافتها جورج صاند إلى مجموعة عشاقها المرموقين، وقد استمرت علاقتهما من عام ١٨٣٩ حتى عام ١٨٤٧، وظلا على صلة طيبة حتى وفاة شوبان المبكرة فى ١٨٤٩ عن أربعين عاما فحسب وكان شوبان معتل الصحة. يهدده مرض السل بصورة مستمرة، وقد سافر مع

حبيبته صاند إلى جزيرة مايوركا الإسبانية لقضاء الشتاء هناك للاستشفاء. بيد أن رحلة مايوركا ضارعت رحلتها السابقة إلى البندقية فى سوء الحظ والأحوال، فقد كانت المعيشة فى الجزيرة الإسبانية بدائية، ولم يجدا ما كانا يتوقعانه من راحة وطقس ملائم لصحة شوبان. ولكن الرحلة أثمرت كتاب صاند الشهير «شتاء فى مايوركا»، كما ألهمت شوبان عددا من مقطوعاته الموسيقية. وقد قضى شوبان صيف سنوات علاقته بجورج صاند فى قصر نوهان، حيث خصصت له غرفة دائمة فيه، علاوة على مكان لعزف البيانو. وكانت هذه هى الفترة التى شهد فيها القصر أكبر تجمع لفنانى العصر وأدبائه، فإلى جانب صاحبة القصر وشوبان كان من الزوار أيضا فرانز ليست والروائى بلزاك والشاعر الألمانى هنريش هاينى، بالإضافة الى الرسام الشهير يوجين ديلاكروا، التى خصصت له صاند مبنى منفصلا كاستوديو يرسم فيه ويعطى دروسا فى الفن لابنها موريس. وقد كتب ديلاكروا مرة عن إقامته فى القصر «أحيانا من خلال النافذة التى تطل على الحديقة، كانت تصل إلينا نغمات من موسيقى شوبان، حين يكون مستغرقا فى عمله. وتمتزج هذه النغمات بتغريد البلابل وعطر شجيرات الورد الفواح»!.

ومع السنوات الأخيرة فى علاقة جورج وصاند وشوبان، حدث تغير أساسى فى الاتجاه العام لرواياتها؛ فبعد أن كانت تعتمد

الأسلوب الرومانسى وتعالج أساسا العلاقات بين الأفراد وتحليل عواطفهم، اتجهت ناحية ما يسمى «الروايات الرعوية» التى تدور حول سكان الريف ومشاكلهم وعلاقاتهم بالأرض والطبيعة، وأهم الروايات «كونصويلو» و «مستنقع الشيطان» و «فرانسوا شامبى» و «فاديت الصغيرة». ومع التطورات السياسية التى شهدتها فرنسا فى عام ١٨٤٨، أغرقت صاند أحزانها الشخصية بالمشاركة فى النضال للحصول على حقوق الشعب التى بشرت بها الثورة الفرنسية. ولقد شهدت كاتبتنا خلال حياتها التى استغرقت ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر تقريبا التحولات الجذرية التى مرت بفرنسا فى تلك الفترة. فهى قد عاصرت نابليون بونابرت ثم عودة الملكية مع لويس الثامن عشر وشارل العاشر ثم ارتقاء لويس فيليب سدة العرش استجابة لمطالب الشعب جعلته يدخل العديد من الإصلاحات على النظام الملكى لصالح المواطنين، بيد أن الشعب طالب بمزيد من التغيير وقام بما يسمى ثورة ١٨٤٨ التى جاءت بالجمهورية الثانية وعلى رأسها لويس نابليون الذى شهدت السنوات الثلاث الأولى لحكمه نهضة فى مجال الحقوق والتطلعات الشعبية فى الحرية والديمقراطية، شاركت فيها جورج صاند بمقالاتها ورواياتها التى عكست تلك الأمانى. ولكن رئيس الجمهورية الجديد سرعان ما عصف بتلك الأمانى عام ١٨٥١ حين ألغى الجمهورية ونادى بنفسه إمبراطورا تحت اسم نابليون

الثالث، وحاول إحياء عهد سلفه بونابرت، ولكنه لم ينجح فى ذلك إذ انتهى حكمه بكارثة الهزيمة أمام بسمارك وقيام الجمهورية الثالثة التى استمرت حتى غداة الحرب العالمية الثانية.

وقد أصابت دكتاتورية نابليون الثالث آمال الشعب فى مقتل، وهو ما شعرت به جورج صاند أيضا، فبقدرجهادها لنيل حريتها الشخصية كانت آمالها مع حرية الشعب وحقوقه، وقد استخدمت كل ما تملك من نفوذ وصلات لحماية أصدقائها من الجمهور يين والثوريين الذين تعرضوا لنقمة الإمبراطور الجديد مع ابنها هى نفسها كانت فى خطر كبير نظرا لتعاطفها مع الشعب ومع مشاكل العمال والفلاحين. ولم يبق أمامها بعد ذلك إلا الاستقرار فى نوهان، تكتب روايتين كل عام، وتمضى أوقاتها مع أهل القرية وأطفالهم حتى اكتسبت منهم لقب «سيدة نوهان الجليلة» وقد أصدرت فى ذلك الوقت سيرتها الذاتية الضخمة بعنوان «قصى حياتى». وترجع إلى الفترة الأخيرة من حياتها علاقتها الأدبية بفلوبير صاحب «مدام بوفارى» واسكندر دوماس الابن صاحب «غادة الكاميليا». وكانا من المدعوين الدائمين على مائدة صاند فى نوهان حتى وفاتها فى ١٨٧٦.

وبعد أن تسلحت جماعة الزائرين بهذه النبذة السريعة عن حياة صاحبة المنزل الذى نزوره. دلفنا إلى غرفة الطعام؛ فإذا بالمائدة

..خشوبة والأطباق عليها، وأمام كل مقعد اسم صاحبة، وقرأنا منهم أسماء فلوبير وديماس الابن وتورجنيف وغيرهم من مشاهير العصر الذين ارتبطت بهم صاند فى سنواتها الأخيرة، بيد أننا تخيلنا أيضا الشخصيات الأخرى التى كانت أليفة بهذه المائدة ذاتها: شوبان وفرانز ليست وديلاكروا وسانت بيف. ودخلنا بعد ذلك إلى قاعة المسرح، التى كانت أولا عدة حجرات صغيرة تقام فيها عروض تمثيلية بمصاحبة بيانو شوبان، ثم هدمت الفواصل بينها لتصبح مسرحا صغيرا يتسع لحوالى خمسين شخصا وقد أقيمت فى هذه القاعة تدريبات على تمثيليات مأخوذة من روايات جورج صاند، كما أنها شهدت عروض مسرح العرائس الذى ابتدعه موريس صاند ونحت له عشرات العرائس الخشبية التى كانت أمه تقوم بتفصيل الملابس لها، ومازالت تلك العرائس معروضة فى خزائن خشبية تبهر الأنظار بدقتها وألوانها. ثم صعدنا السلم الخشبى الذى هو فى حد ذاته تحفة نحتية رائعة، لنصل إلى الطابق الأول الذى يضم غرفة نوم الكاتبة. بورق حائطها الأزرق الخفيف الذى اختارته صاند بنفسها مع الأغطية والستائر المتماثلة اللون. وفيها السرير الذى كانت تنام عليه حتى وفاتها. وبعد زيارة عدة حجرات كانت معدة للضيوف ولأحفادها، رأينا الغرفة التى كانت تكتب فيها، وبها المكتب من طراز لويس الرابع عشر، وأمامه رفوف الكتب التى تشكل مكتبتها فى ذلك الحين.

وبعد إتمام هذه الزيارة الدسمة. يصبح من المناسب الميل إلى غرفة المشتريات الملحقة بالمتحف لشراء ما يبغيه الزائر من كتب جورج صاند والصور المختلفة المتعلقة بها وبضيعتها، ثم التوجه إلى الكافيتيريا الأنيقة التى أقيمت فى طرف من الحديقة ـ واسمها على اسم بطلة صاند المشهورة «فاديت الصغيرة» ـ للراحة وتناول المشروبات والتفكر فى حياة صاحبة القصر. الروائية التى سبقت عصرها بأكثر من قرن كامل.

الأصم الذى
ملأ الدنيا
ألحانا وأنغاما

لعل أحداً من نجوم الموسيقى لم يبلغ ما بلغه لودفيج فان بيتهوفن من شهرة خلال حياته تضاعفت على مر الأيام حتى يومنا هذا، حتى أصبح رمزا للفنان الذى الذى يتوفر على فنه فى وجه المصاعب المالية والصحية. ويضحى بعلاقاته الاجتماعية وحياته العاطفية فى سبيل إخراج درره الموسيقية. والحق أن الموسيقار العالمى لم يختر تلك الصورة لنفسه. بل إن ظروفه ومسار حياته هى التى فرضتها عليه فرضا؛ ولكن ساهم فيها أيضا حبه الجامح للحرية مما جعله لا يطيق أن يخضع لأية قيود سياسية كانت أو اجتماعية ومن أشهر الأحداث التى تبين ذلك، إعجابه الشديد بقائد عصره نابليون بونابرت، الذى استطاع أن يلم شمل فرنسا بعد عصر الإرهاب ويصنع منها دولة قوية متحدة،فأهداه بيتهوفن سيمفونيته الثالثة فى بداية الأمر. ولما سمع الموسيقار أن نابليون قد توج نفسه إمبراطورا، أعلن أن القائد قد خان مبادئه

الديمقراطية، ومحا بيده اسم نابليون من صفحة سيمفونيته، وسماها بدلا من ذلك بسيمفونية البطولة، وقال إنها لذكرى رجل كان عظيما!.

ولاشك أن السائر على خطى بيتهوفن لا يحتاج كثيرا إلى الذهاب إلى متاحفه والمدن التى عاش فيها، فى وسعه الاستماع إلى روائعه الموسيقية أينما كان؛ بيد أن التعرف على حياته والتمتع برؤية متعلقاته ستحمل المعجب به الى مدينتين: بون فى ألمانيا وفيينا عاصمة النمسا. ومتحف بيتهوفن الأساسى هو المنزل الذى ولد فيه فى مدينة بون، وعاش فيه حتى رحيله النهائى إلى فيينا. ويتجول الزائر فى أبهائه التى شهدها الموسيقار العظيم فى صباه وشبابه المبكر، ويرى مئات الأشياء التى كان يستخدمها فى حياته اليومية، والآلات الموسيقية التى عزف عليها، ومنها فيولين نادر كان محببا إليه حتى أنه ختمه باسمه. كما يضم المتحف أكبر مجموعة من المخطوطات الأصلية بخط بيتهوفن لمؤلفاته الموسيقية. ومن حسن الحظ أن هذا المبنى لم يصب بسوء فى أثناء القصف الذى تعرضت له المدينة فى الحرب العالمية الثانية. وهناك تمثال ضخم لبيتهوفن بالقرب من متحفه.

وقد ولد بيتهوفن فى ١٧ ديسمبر ١٧٧٠ فى تلك المدينة، وكانت فى ذلك الوقت إحدى ما يقرب من مائة مدينة تضمها

علاقات واهية تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. التى قال عنها فولتير مقولته الشهيرة بأنها آنذاك لم تكن لا إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة، وقد ركز العديد من تلك المدن جهده فى رعاية الثقافة والفنون، خاصة الموسيقى التى كان الأمراء والنبلاء يشجعونها على أفضل وجه. وقد جاء بيتهوفن من أسرة عمل جيلان منها موسيقيين في قصر أمراء مدينة بون، ولذلك كان من الطبيعى أن يهيئه أبوه كى يسير على نفس الدرب، بل وعمل ما فى وسعه من أجل أن يصبح ابنه «موزار» آخر. وقد عانى بيتهوفن من قسوة أبيه الذى كان يضطره إلى الدراسة المكثفة للموسيقى والجلوس ساعات طويلة أمام البيانو للتمرين، حتى أن المرء ليعجب كيف لم تؤد هذه السياسة بالصبى إلى كره الموسيقى وكل ما يتصل بها. بيد أن بيتهوفن برع فى دراسته الموسيقية، مقتفيا خطى جده الموسيقى وليس أبيه، وأتيح له تقديم أول حفل موسيقى وهو فى التاسعة من عمره، رغم أن أباه قدّمه على أنه فى السابعة، حتى يزيد من إعجاب الناس بنبوغه المبكر.

ورغم أن نجاح بيتهوفن فى نشاطه الأول لم يكن كبيرا، فقد وضع الكثير من المقطوعات، كما نشر أول ثلاث اسطوانات من تأليفه وهو فى الثالثة عشرة من عمره فحسب وجذب ذلك النبوغ المبكر اهتمام كبار الموسيقيين، فتولوه بالرعاية والتشجيع، فتتلمذ

على يد واحد منهم هو «نيفى»، الذى سرعان ما أوصى بضرورة أن يتوجه إلى عاصمة الموسيقى فى كل زمان، فيينا. ويتضافر بعض نبلاء مدينة بون كيما يحققوا ذلك، فيسافر بيتهوفن إلى فيينا عام ١٧٨٧ بهدف أن يتتلمذ على يدى موزار هناك. ونحن نعلم أن موزار لم يدربه على شىء ولكن الحكاية تقول إنه قابل بيتهوفن واستمع لعزفه ثم أعلن: «راقبوا هذا الفتى فسيصبح له شأن كبير فى يوم من الأيام». ويضطر بيتهوفن إلى العودة إلى بون لمرض والدته التى سرعان ما توفيت، مما جعل الأب يهوى بعدها إلى إدمان الشراب وإهمال أولاده. لدرجة أن بيتهوفن أصبح رسميا، عام ١٧٨٩، عائل أسرته من الدخل الذى يتأتى له من الحفلات والدروس الموسيقية. بالإضافة إلى وظيفته كعازف الأرغن فى بلاط أمير البلاد، وحين مر الموسيقار المشهور هايدن ببون عام ١٧٩٢، يوافق على طلب مشجعى بيتهوفن أن يصطحبه معه إلى فيينا ليتتلمذ عليه وكان موزار قد توفى وتاق أهل بون أن يصبح مواطنهم الشاب خليفته على عرش الموسيقى.

ورحل بيتهوفن إلى فيينا فى نوفمبر ١٧٩٢ واستقر بها بقية عمره. وكان الجو الموسيقى فيها يعمر بالنشاط والمنافسة الحادة فى نفس الوقت، وكان لكل نبيل أو ثرى موسيقاره الخاص الذى يعزف له فى حفلاته. ولكن طبيعة بيتهوفن المستقلة وحدة طباعه جعلت

من المدرب عليه أن يرتبط بعلية القوم فى فيينا مثل هذا الارتباط الذى كان يعتبره لا يليق بالفنان الأصيل، وكثيرا ما كان يغادر حفلات دعى إليها لأنه لم يجد الترحيب اللائق به. وقد تمت تلك النزعات الثورية فى نفس موسيقارنا بفضل أحداث الثورة الفرنسية التى طرحت شعارات الديمقراطية والمساواة. وبالرغم من طبيعته النافرة، سرعان ما احتل مكانة متقدمة فى الوسط الموسيقى فى فيينا، وانتشر صيته الفنى بفضل طريقة عزفه الأصيلة المتميزة التى اتسمت بجدة فى الشكل بصفة خاصة. ولهذا ما إن بلغ بيتهوفن الثلاثين من عمره حتى كانت شهرته قد ثبتت وموهبته معترفا بها من الجميع. وتقع مؤلفاته حتى عام ١٨٠٠ فيما يسميه النقاد بالطور الأول من إبداعه، وهى المرحلة التى سار فيها على خطى هايدن وموزار وساليرى، وحمل نهجهم الكلاسيكى حتى منتهاه، الى أن دخل فى طوره الثانى الذى يتمثل فى التجديد الرومانسى الذى بدأ مع سيمفونيته الثالثة، التى كسرت بشكلها المبتكر التقاليد الرسمية للموسيقى الكلاسيكية وأعلنت مولد عصر جديد بمحتواها الذى يشيد بالحرية والكراهية الإنسانية.

وزاد إعجاب الناس بفنه وإنتاجه بقدر ما أزعجهم سلوكه الاجتماعى الغليظ الذى يقترب من الفظاظة، وتحكى عنه قصص كثيرة من سوء معاملته وعدم اهتمامه بمظهره وهيامه فى

الطرقات وهو يهمهم بالنغمات التى يسطرها بعد ذلك فى نوتة صغيرة يحملها معه دائما لمثل هذه المناسبات، وكان يأنف حتى من تحية النبلاء والأثرياء ويعتبر ذلك تذللا لهم، وله قصة مشهورة مع شاعر ألمانيا الكبير «جوتة» حين كانا يتمشيان معا فى مدينة بالقرب من «كارلسباد»، حين تنحى جوتة عن الطريق كيما يحيى ثلة من النبلاء، الذين لم يعيروه التفاتا بينما توجهوا بالتحية إلى بيتهوفن الذى مضى فى طريقه ولم يرد عليهم وقال بعد ذلك لجولة معاتبا: «هناك جوتة واحد وبيتهوفن واحد، أما هم فهناك الآلاف منهم».

ثم يطرأ شىء خطير على حياة بيتهوفن إذ بدأ يشعر أن سمعه يضعف تدريجيا، وهو ما تأكد له بعد ذلك بالفحص الطبى وجاء ذلك ضربة شديدة لطموحه الفنى قلبت حياته رأسا على عقب. وللقارئ الذى يريد أن يدرك عمق هذه الكارثة بالنسبة للموسيقار، أن يتصور «بيكاسو» وقد أصيب فى عينه أو «بافاروتى» وقد فقد صوته. وكان رد فعل بيتهوفن الأولى عنيفا، إذ اعتكف فى المنزل الذى كان يسكنه وقتها وكتب خطابا ــ لم يرسله ــ موجها إلى أخويه، وهو عبارة عن وثيقة جادة اللهجة يصف فيها الظلم الذى أنزلته به الحياة، وكيف أنه كان قد قرر الانتحار، إلا أنه استقر على أن يعيش لفنه ويحيا به. والخيط الفضى لتلك الكارثة التى

حلت ببيتهوفن هو أنه قد توفر على التأليف الموسيقى بدلا من صرف وقته فى إحياء الحفلات عازفا موسيقاه وموسيقى غيره. وقد حملته مرارة فقدان سمعه على الدخول فى عالم جديد من الألحان التى لم تسمع من قبل، والتى زخر بها الطور الثانى من إنتاجه، الذى يشمل سيمفونياته من الرابعة حتى الثامنة (١٨٠٦ - ١٨١٢) التى تبرز من بينها السيمفونية الخامسة بافتتاحيتها الشهيرة، والسيمفونية الرعوية التى استلهم مؤلفها الطبيعة الساحرة للغابات المحيطة بفيينا والتى كان يعتكف فيها مناجيا الأشجار والطيور والمياه الرقراقة، كما وضع بيتهوفن فى تلك المرحلة الأوبرا الوحيدة التى ألفها وهى «فيدليو» وافتتاحية مسرحية جوتة «إجمنت» وصوناتة كرويزر ومقطوعة «إلى إليز» التى أصبحت من أشهر مقطوعات البيانو الخفيفة. وذلك ضمن عشرات الأعمال القصيرة الأخرى.

وقد شهدت تلك الفترة من حياته أحداثا أساسية منها معركته القضائية مع «جوانا» أرملة أخيه «كاسبار» لتولى الوصاية على ابنها «كارل» وقد فاز الموسيقار فيها خلال ثلاث سنوات مضنية أثرت فى صحته وأعصابه، وتولى تنشئة الصبى بطريقته الخاصة، محاولا أن يجعله يسير على دربه فى مهنة الموسيقى. ولكنه سرعان ما أدرك أن الصبى لم يخلق لذلك فاكتفى أن يكون له

بمثابة الأب، وجاهد كى يترك له من المال ما يكمل له مستقبلا مريحا.

ويبدأ الطور الفنى الأخير لبيتهوفن حوالى عام ١٨١٦ وتتميز أعماله فيه بدرجة أكبر من العمق والتعقيد. وتعتبر درة هذه المرحلة سيمفونيته التاسعة التى استغرق تأليفها منه ست سنوات وأتمها فى ١٨٢٣ ، وقد أدخل فيها لأول مرة فى الفن السيمفونى الكورال الذى غنى مقطوعة «نشيد للبهجة» من تأليف الشاعر الألمانى شيللر ومن مقطوعاته الشهيرة أيضا «القداس الجليل» ورباعياته الوترية الخمس الأخيرة، وعشرات من الألحان والأغانى القصيرة وقد أضفى بيتهوفن على موسيقاه عمقا وكثافة لم تشهدها من قبل، وتأثر بها الكثير من كبار الموسيقيين الآخرين مثل شوبرت وبرليوز وبروكنر وجوستاف مالر.

ورغم أن بيتهوفن لم يتزوج أبداً، فقد كانت له علاقات عاطفية متعددة، بيد أنها لم تؤد الى نتيجة ناجحة، فقد كانت إما مع نساء متزوجات أو فى درجة أعلى إجتماعيا، وبعد وفاة بيتهوفن، عثر بين أوراقه على عدة خطابات غرامية ملتهبة وجهها إلى من أسماها «الحبيبة الخالدة» والتى لم تتأكد هويتها على وجه التحديد، وإن كان من المرجح أنها هى «جولييت جويشياردى» التى كانت

تتلقى دروس الموسيقى عليه، والتى أهدى لها مقطوعته الشهيرة «ضوء القمر».

وقد أمضى بيتهوفن عامه الأخير فريسة للمرض، وتوفى فى ٢٦ مارس ١٨٢٧ فى ليلة عاصفة مرعدة، وشيع جثمانه ثلاثون ألف شخص حيث ووري الثرى فى ركن الموسيقيين بمقبرة فيينا المركزية، التى تضم أيضا رفات شوبرت وبرامز، ولا يحمل شاهد قبره إلا كلمة واحدة: بيتهوفن.

وتزخر فيينا بالمنازل المرصعة بعلامة تبين أن بيتهوفن كان من سكانها، وهى كثيرة لأن الموسيقار الشهير كان كثير التنقل باستمرار نظرا لضيق الناس به وضيقه بالناس، أما المسكن الذى كتب فيه خطابه الشهير لأخويه فى بدء إصابته بالصمم فقد تحول عام ١٩٧٠ إلى متحف يضم بعض آثار الموسيقار، ومن بينها صورة الخطاب المذكور، إذ أن الأصل محفوظ فى مكتبة جامعة هامبورج. وهناك أيضا تمثال فخيم لبيتهوفن يمثله جالسا ومن حوله تماثيل ترمز لموضوعات السيمفونية التاسعة، كذلك يمكن لمحبى بيتهوفن رؤية الجداريات الرائعة التى رسمها فنان فيينا «جوستاف كليمت» عام ١٩٠٢ بمناسبة إقامة المدينة لمهرجان ضخم لبيتهوفن، قُدمت فيه أعماله، وعرضت لوحات وتماثيل له.

وتمثل جداريات كليمت تصوره لأنشودة للبهجة فى السيمفونية التاسعة. وفوق كل هذا. فإن زائرى فيينا يسمعون أينما توجهوا ألحان بيتهوفن، جنبا إلى جنب مع ألحان موزار وشتراوس، تنساب إلى آذانهم من المقاهى والمحلات العامة، فى هذه العاصمة التى صدق من سماها بحق مدينة الموسيقى.

أيرلندا

تخيب ظن

جيمس جويس

عندما رحل جيمس جويس عن وطنه أيرلندا بلغ به الضيق أن وصفها بأنها مثل الخنزيرة العجوز التى تأكل أبناءها وكان يقصد بذلك أنها البلد الذى لا يقدر مواهب الناس فيه ويضطرهم إلى الرحيل عنه بحثا عن مستقبلهم فى وطن آخر. وكان هذا هو عين ما فعله، إذ رحل عنها عام ١٩٠٤، وتردد عليها عدة مرات قبل رحليه الأخير عام ١٩١٢ الذى الذى لم يرها بعده أبدا حتى وفاته عام ١٩٤١ . إذن كيف خيبت أيرلندا ظنه؟ لقد فعلت ذلك بأن احتفت به على نحو لم تحتف بمثله من أبنائها، ووضعته فى مستوى فنى أصبح فيه هو شكسبير أيرلندا. متفوقا على ييتس وسنج وأوسكار وايلد وغيرهم من كبار الأدباء الأيرلنديين. وأصبح الآن يوجد متحف جيمس جويس فى دبلن ، وجمعيات أيرلندية لجويس، وفصلية جويس، ومركز جويس، وتمثال جويس بالحجم الطبيعى فى قلب دبلن. وقد أصدرت أيرلندا عام ١٩٨٢ طابع بريد

وميدالية تذكارية للكاتب الكبير بمناسبة مرور مائة عام على مولده، كما تحمل ورقة العشرة جنيهات الأيرلندية صورة جويس فى وجهها وأول سطور روايته الأخيرة مع توقيعه فى ظهرها. فيالها من خيبة ظن رائعة!

ولقد كانت حياة جويس فى أيرلندا سلسلة من الصراعات من أجل تحرير نفسه وروحه من مجموعة من الأغلال التى تصور أنها ستقف فى سبيل تحقيق أعلى قدرمن الأصالة والصدق الفنى. سواء كانت تلك الأغلال هى الأسرة التقليدية، أو الدين بمعناه الحرفى، أو القومية الضيقة. ولذلك فقد نحّى جانبا الفكرة التى كانت قد خطرت له فى صباه بالانخراط فى سلك الكهنوت، ورفض الالتحاق بوظيفة بعد حصوله على الليسانس من الكلية الجامعية بدبلن، ثم اتخذ الخطوة الأخيرة وهى الرحيل عن أيرلندا والذهاب إلى باريس «كى أقابل للمرة المليون حقيقة التجربة، وأصنع فى مصهر روحى الضمير الذى لم يخلق لعنصرى»، وهو يعتمد فى حياته الفنية تلك على ثلاث ركائز ذكرها أيضا فى نهاية روايته «صورة الفنان فى شبابه»، وهى: الصمت والمنفى والدهاء. وعاش جويس أشهرا فى العاصمة الفرنسية عام ١٩٠٢ ما بين الدراسة والكتابة وإعطاء دروس فى الإنجليزية. وقد عطل مشروعه ذاك البرقية التى وصلته بضرورة العودة إلى دبلن لأن أمه

تحتضر؛ فعاد لوداعها وإن رفض توسلاتها إليه بهجر حياته البوهيمية والعودة إلى حظيرة الدين. ولمدة عامين بعد وفاة والدته، عاش جويس فى دبلن حياة شبيهة بحياة ستيفن ديدالوس فى رواية «عوليس» خاصة الفترة التى أقام فيها فى «برج مارتللو» مع صديقه طالب الطب «أوليفر جوجارتى» بينما هو يتكسب القليل من النقود بعمله فى إحدى المدارس. وقد تعرف فى تلك الأثناء بفتاة لفتت انتباهه، تعمل فى أحد فنادق العاصمة الأيرلندية هى «نورا برناكل» التى صحبته بقية حياته. وكان اليوم الذى التقيا فيه لأول موعد غرامى، وهو ١٦ يونيو ١٩٠٤، يوما هاما فى حياة جويس حتى إنه خلّده باختياره اليوم المفرد الذى تقع فيه أحداث رواية عوليس المزدحمة بالوقائع المتشابكة والتى تربو صفحاتها على السبعمائة. وقد أصبح ذلك اليوم من كل عام يدعى «بلومزداى» أو يوم بلوم، نسبة إلى بطل الرواية ليوبولد بلوم؛ ويحتفل به «الجويسيون» فى أنحاء العالم بإحياء ذكرى جويس بكل الصور: من قراءات كاملة لعوليس، إلى تمثيليات مأخوذة عنها، بل وتناول الأطعمة التى ورد ذكرها فى الرواية خاصة «الكلاوى» المقلية.

ويُقنع جويس نورا بطريقة حياته وبفلسفته، فتوافق على صحبته فى منفاه الاختيارى، ويرحلان معا عام ١٩٠٤ إلى «القارة» إلى

أوروبا، حيث يعثر جويس على وظيفة مدرس فى مدارس «برليتز» العالمية للغات، وساعده على ذلك دراسته وحذقه للفرنسية والإيطالية إلى جانب إنجليزيته الأم. وتمتد هذه المرحلة من حياته إلى عام ١٩١٥، ويشهد فيها أحداثا خطت سطورا هامة فى حياته وإنتاجه الأدبى ونظرته للحياة ولبلده أيرلندا. وقد تنقل فى تلك السنوات ما بين مدن بولا وتريستا - وكانتا من إمبراطورية النمسا والمجر آنذاك - وروما التى عمل فيها موظفا كتابيا فى أحد البنوك. وانهمك أيامها فى كتابة قصصه القصيرة التى ظهرت بعد ذلك فى كتابه «أهالى دبلن» وروايته الأولى صورة الفنان، وكذلك القصائد التى ضمها ديوان شعره الأول موسيقى الحجرة. واتصفت حياته بسمات استمرت معه طول حياته، منها صعوبة حصوله على المال، ومصاعب العثور على ناشرين لأعماله، وكذلك آلام عينيه التى اضطرته الى إجراء العديد من العمليات الجراحية فيهما. وأنجب من نورا ابنه جورجيو وابنته لوسيا فى بداية سنوات ترحاله.

وعاد جويس فى تلك الفترة مرات قليلة إلى إيرلندا، أولاها عام ١٩٠٩ مع ابنه فى زيارة للعائلة، وبعدها جذب انتباهه عدم وجود دار للسينما، ذلك الفن الناشىء أيامها، فى دبلن، فكان أن عرض على بعض الممولين فى تريستا إنشاء دار عرض هناك. وهكذا

كان لجويس فضل إدخال السينما إلى بلاده، وافتتحت دار عرض «فولتا» فى دبلن عام ١٩١٠. ومع أن المشروع بدأ بداية مشجعة، فإنه تعثر بعد ذلك، واضطر جويس وشركاؤه إلى بيع الدار بخسارة مالية. وتدل تلك المبادرة إلى اهتمام جويس المبكر بفن السينما، الذى ألهمه نقل بعض أساليبه الجديدة إلى رواياته، خاصة الفلاش باك والتنقل المفاجىء بين المناظر. وكانت آخر زيارة لجويس إلى أيرلندا عام ١٩١٢ فى محاولة منه لحل المشاكل التى كانت تواجه نشر مجموعته القصصية أهالى دبلن. وانتهت مفاوضاته مع الناشر والطابع إلى فشل ذريع بعد طلبهما من المؤلف - خوفا من الصراحة التى تميزت بها القصص فى وصف المدينة وسكانها - إجراء تغييرات جذرية لم يوافق جويس عليها. ففسخ الناشر عقده وقام الطابع بإتلاف صحائف الكتاب. وغادر جويس بلاده إلى غير رجعة وهو يشعر بمرارة شديدة تجاه الفشل المادى والأدبى الذى لاقاه هناك. وقد كتب فى القطار الذى عاد به إلى تريستا قصيدة هجائية مقذعة ضد الناشر الذى خذله، جعل عنوانها «غاز من موقد».

وبعد تلك القطيعة الحاسمة، بدأت أحوال جويس فى التحسن تدريجيا، فقد ساعده مواطنه الشاعر العظيم ييتس فى الاتصال بالشاعر الأمريكى المقيم فى باريس عزرا باوند. الذى تعرف على

موهبة جويس القصصية وأتاح له نشر صورة الفنان مسلسلة فى مجلة «الأجويست» البريطانية. ثم صدرت «أهالى دبلن» أخيرا فى يونيو ١٩١٤، مما أتاح لجويس البدء فى أعمال جديدة، فكتب مسرحيته الوحيدة «المنفيون» ثم بدأ فى تسيطر عوليس. ولم يؤثر اندلاع الحرب العالمية الأولى على وضع جويس فى تريستا إلا بعد دخول إيطاليا الحرب، وبعدها اضطر جويس إلى الرحيل مع عائلته إلى البلد المحايد يوسيرا، حيث استقروا فى زيورخ، وأمضى جويس أربعة سنوات ونيف فى زيورخ، تغيرت فيها أوضاعه المالية، إذ نجح ييتس وباوند فى الحصول له على منحة من الحكومة البريطانية، بالإضافة إلى إعانة أخرى من الصندوق الأدبى الملكى. وقد برزت فى تلك الفترة راعية جويس الكريمة، السيدة «هارييت ويفر» التى أعجبت بعبقرية جويس القصصية فأوقفت له أموالا دورية كى يتفرغ لإبداعه الأدبى. وإلى جانب ذلك، ساعدت السيدة ويفر على نشر كتب جويس فى إنجلترا وأمريكا، مما عمل على ذيوع صيته وعاد عليه بإيرادات نشرها. وقد أدى كل هذا النجاح إلى تغير نظرة جويس إلى الحياة، بما فى ذلك موقفه من بلاده أيرلندا حيث خفف كثيرا من حدة انتقاده لها. وركز الكاتب على المضى قدما فى العمل الكبير الذى كان بصدده، وهو رواية عوليس التى استمر يكتب فيها طوال سنوات

زيورخ. ولما كانت الرواية كلها تدور فى دبلن وتحكى عن سكانها وشوارعها ومحلاتها ومقاهيها ومبانيها العامة ومكتباتها، فقد أصبح جويس يعيش بذهنه كله فى تلك المدينة، بل إنه كان يكتب لأقربائه ومعارفه هناك كيما يوافوه بمعلومات معينة يحتاجها للرواية، أو للتأكد من اسم شارع أو مطعم، وما إلى ذلك من التفصيلات الدقيقة.

وبعد الحرب، اقترح عزرا باوند على جويس أن يذهب إلى باريس حيث إمكانيات العمل الفنى أوسع، فتوجه إليها مؤلفنا عام ١٩٢٠ بنية أن يبقى فيها وقتا قصيرا، فكان أن بقى فيها عشرين عاما كاملة. وقد مهد له المعجبون بأدبه الطريق إلى لقاء مجموعات الأدباء والفنانين والنقاد الذين كانت تعج بهم عاصمة النور فى فترة ما بين الحربين، فتعرف جويس على همنجواى وسكوت فتزجيرالد وجرترود شتاين وقابل بروست، بيد أن أهم من تعرف بهم بالنسبة لإنتاجه هى «سيلفيا بيتش» الأمريكية صاحبة مكتبة «شكسبير وشركاه» التى كانت أشبه بتجمع أدبى وفنى للكتاب المغتربين فى باريس، وهمزة وصل بينهم وبين أدباء ونقاد فرنسا. وهكذا عندما علمت بيتش بعدم وجود ناشر لعوليس رغم ذيوع صيتها حتى قبل صدورها فى كتاب، عرضت عليه أن تقوم مكتبتها بنشرها، ووافق جويس على الفور. وجرى الطبع

علـى قـدم وسـاق فى مطبـعـة بمدينة ديجـون الفـرنـسـيـة، وتولى أصدقاء جويس وبيتش جمع الاشتراكات فى الكتـاب، وقدمت بيتش لجوليس يوم احتفاله بعيد ميلاده الأربعين فى ٢ فبراير ١٩٢٢ أول نسـخـة من الرواية. وقـد تطلب الأمـر سنوات طوالا من المعـارك والقضايا حتى تم السماح بنشر الكتاب فى أمريكا وبريطانيا، أخذت الكثير من الجهد والوقت من الكاتب الكبير ومحبيه وعلى رأسهم سيلفيا بيتش.

وتفـرغ جـويس بعـد صـدور عـوليس لكتـابه التـالى الذى أبقى عنوانه سرا إلى آخـر وقت، مـشيـرا إليـه بعنوان مـؤقت هو «العمل مستمر» والذى قضى فى كتابته سبعة عشر عاما كاملة، وصدر فى النهـاية بعنوان «فـينيـجـانزويك» وقد أثارت روايتـه الثـالثـة العـجب لتعقيدها الشديد وغرابتها الأشد، فهى تحكى تاريخ البشرية عن طريق أحلام شخصياتها ورؤاهم، بلغة مستمدة من كل لغات العالم وبكلمات من ابتكار جـويس. وأبدى الجـمـيع، بمن فـيـهم أصـدقـاء الكاتب المقـربين، تشككهم فـى ذلك العـمـل. بيـد أن الزمن أثبت أصـالتـه، وتوالت الكتـابات النقـدية تشرح الرواية وتبسطها لأذهان القراء، وأصبـحت الآن فى طليعة الكتب التى يتبارى أساتذة الأدب فى التـعليق عليـهـا واستـخـراج كنوزها، حتـى لقد أعلن أحد النقـاد الأمـريكيين مـؤخـرا أنهـا ستكون رواية القـرن الحـادى والعـشـرين.

وليس ذلك غريبا، إذ أصبح الجميع يعترفون الآن بعبقرية جويس اللغوية التى طبقها فى رواياته، فخرجت روايته عوليس الأولى بين أهم مائة رواية فى القرن العشرين، التى كان من بينها أيضا روايتيه الآخريين. ويسارع المترجمون الآن إلى إخراج روايته الأخيرة باللغات المختلفة مع صعوبة ذلك الأمر، حتى أن الترجمة الفرنسية لها لم تصدر نهائيا إلا من عدة سنوات فحسب، وعندنا فى اللغة العربية، توفر «راهب جويس» الدكتور طه محمود طه، على إخراج عوليس بطبعتيها الأولى والمصححة، ثم «أنه يترجم منذ زمن روايته الأخيرة والتى استسمح الدكتور طه فى الإعلان ربما لأول مرة عن ترجمة عنوانها الذى اختاره لها وهو «مأتم آل الفنيجينات»؛ ولاشك أنه عنوان مبدع جاء بعد أعوام من دراسة الرواية وحل ألغازها وإن رؤيه هذه الرواية بالعربية، الذى نرجو أن يكون وشيكا، سيكون مفخرة للغة الضاد ولمصر التى أنجز أحد أبنائها مثل ذلك العمل.

ومع أن جويس قد أمضى أكثر عمره خارج أيرلندا، فإن السائر على خطاه لا يجد مبتغاه إلا فى ذلك البلد. فى عام ١٩٦٢، افتتحت الدولة متحف جويس فى برج مارتللو الذى أقام فيه جويس بعض الوقت، وهو يضم كل ما يتعلق بجويس من تذكارات شخصية، ونسخ من الطبعات الأولى لكتبه، ومخطوطاته، وتقام

فيه المحاضرات التى تتناول حياته وأعماله. وبالإضافة إلى ذلك، ثمة منازل عديدة فى دبلن وضواحيها تحمل لافتات تشير إلى إقامة جويس فيها حين كانت أسرته كثيرة التنقل بسبب عسر الأب المالى؛ وهناك أيضا المدارس والكليات التى تلقى فيها العلم، وكلها مذكورة فى رواياته، أما أعظم ما يصبو إليه عشاق الكاتب العارفين خفايا روايته عوليس، فهو التجول فى دبلن متتبعين سير أحداث الرواية فى الأماكن المذكورة فيها بدءا ببرج مارتللو الذى تبدأ الرواية فيه. مرورا بكل ما رآه بطلا الرواية ليوبولد بلوم وستيفن ديدالوس. وهكذا كانت العلاقة بين الكاتب الكبير وبلده، علاقة الحب العميق الذى يكمن فى أعماق النفس حتى مع غلاف الكراهية الظاهرية. وليس من أبلغ دليل على هذا من إجابة جويس على سؤال يقول: ومتى ستعود إلى إيرلندا؟، بقوله: وهل أنا تركت أيرلندا حتى أعود إليها!«

فى أحضان عروس الشعر



تمثال أحمد شوقي للسجيني

منذ الصبا الباكر، تعلمت مع عدد من أصدقائى الولع بشعر أحمد شوقى ، الذى عرفناه أول ما عرفناه من خلال الأغانى العذبة لعبدالوهاب وأم كلثوم، فكنا نهيم بأغان مثل نهج البردة والنيل، ويا جارة الوادى ودمشق ومنها تعلمنا الرجوع إلى قصائد شوقى الأخرى والتغنى بها. وقد جذبنا إلى شعره ما وجدناه من طلاوة وإيقاع موسيقى فى لغته الشعرية، تجعله سلسا لينا فى أفهامنا ،، مقارنة بالنصوص الصعبة التى كنا نجدها فى القصائد المقررة علينا من الشعر القديم. وكنا نعجب من الحملة الضارية للعقاد، وكنا نجله ونقدره على شوقى وشعره، ولا نرى بأسا فى الجمع بين إعجابنا بهما مع ما بينهما من اختلاف ومعارضة، وقد صحبنى شوقى بعد ذلك على الدوام ، فقد درسناه على يد الدكتور شوقى ضيف فى الجامعة، وحرصت على اصطحاب ديوانه متعدد

الأجزاء أينما ذهبت، إلى إسبانيا حيث أقام هو سنوات المنفى، ثم إلى أرض العالم الجديد.

وكان لافتتاح متحف أحمد شوقى فرح خاص فى نفوسنا التى تتوق لرؤية هذا النوع من المتاحف لكل لشخصيات الأدبية والفنية البارزة فى بلادنا، وكانت زيارته التى قمت بها فى الصيف الماضى من أبرز العلامات فى تلك الإجازة الساحرة، وهذه الفيلا الأنيقة تضارع فى تصميمها وتجهيزها كمتحف وبيت أمير الشعراء، المتاحف المماثلة الموجودة فى أوروبا وأمريكا عدا كثرة الإقبال على زيارتها، إذ وجدت أننى وصديقى على كمال زغلول - العائد من طوكيو - أول زائرين لها منذ عدة أيام، من واقع السجل المعد لتدوين أسماء الزوار.

وقد كانت كرمة ابن هانئ هى أول دار للشاعر فى حى المطرية وقد اختاره حتى يكون قريبا من سراى الخديوى الذى ارتبط به فى القسم الأول من حياته، ولكنه بعد سنوات المنفى وعودته إلى القاهرة عام ١٩١٩ اختار حى الجيزة مقاما لبيته التى أطلق عليه نفس الاسم الذى هام به. وكلمة كرمة هى الدار الذى تحيط بها حديقة وبالأخص تعريشات العنب وهو الكرم، وقد انتقلت الكلمة إلى اللغة الإسبانية وتستخدم حتى الآن فى الكلمة الشهيرة «كارمن» التى هى من أكثر أسماء الأعلام شيوعا فى إسبانيا ، ومعناها

بالضبط هو معنى الكرمه، وفى الأندلس الحالية الكثير من الكرمات، وهى بالمعنى الحديث الفيلات، ومنها فى غرناطة كرمة الموسيقار العالمى دى فايا التى تحولت هى الأخرى إلى متحف له.

دخلنا ذلك الصباح إلى كرمة ابن هانئ فاستقبلنا فى الحديقة تمثال ضخم رائع لصاحب الدار، وهو من أعمال المثّال الراحل جمال السجينى، ونقل إليها مع الاحتفال بمرور خمسين عاما على وفاة شوقى. وهناك تمثال آخر للشاعر فى الطابق الأرضى للدار. وبهو المتحف يبهر الرائى بفخامته التقليدية وطرازة الذى يجمع بين الطابع الفرنسى الكلاسيكى واللمسات الشرقية الأندلسية. وتبدأ زيارة المتحف من الدور الثانى حيث يرى الزائر حجرة نوم الشاعر، وهى أنيقة صغيرة، وبها سرير من النحاس الأصفر وإلى جواره مقعد أسيوطى جميل، وفيها مكتب صغير وبعض الكتب. وتشرح مضيفتنا فى الزيارة أن الشاعر كان يقوم بمعظم كتاباته فى هذه الحجرة وليس فى حجرة المكتب، ولذلك فإننا نجد فيها الكتب التى كان دائم الاطلاع فيها ومعظمها المراجع اللغوية، مثل فقه اللغة وسر العربية للثعالبى وكتاب الألفاظ الكتابية وغيرهما من كتب اللغة وللحجرة شرفة واسعة تطل على الحديقة الغنّاء ويبين وراءها النهر الخالد. وشرحت مضيفتنا أنه حين ابتنى الشاعر هذه الفيلا لم تكن المنطقة مأهولة بالشكل الذى هى عليه الآن، وكانت

الكرمة تطل على النيل مباشرة قبل إنشاء الكورنيش، وكان الشاعر يرى الأهرامات من بعيد من شرفته هذه، فلم يكن بينه وبينها المبانى الكثيفة العالية القائمة الآن والتى تحيط بالكرمة من كل جانب.

ثم دلفنا بعد ذلك إلى غرفة المكتب، يتوسطها مكتب رائع من طراز عصر الإمبراطورية الفرنسي، وأمامه مقعد كبير، وعلى المكتب بعض صور الشاعر. وفى هذه الغرفة توجد المكتبة التى تضم العديد من الكتب المجلدة تجليدا ثمينا، والتى كان شوقى يقرأها ويرجع إليها، خاصة فيما يتعلق بدقائق اللغة والمفردات، وكذلك موضوعات مسرحياته الشعرية. ومن أبرز الكتب التى كان الشاعر يقتنيها مجلدات نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى. ورسالة الغفران للمعرى والبيان والتبيين للجاحظ. وكان القاموس الذى يرجع إليه هو لسان العرب فى ١٨ جزءا، بالإضافة إلى معجم البستان وكتاب أقرب الموارد فى فصحى العربية. ودواوين الشعر التى كان يقتنيها فهى - إلى جانب ديوان المتنبى الذى كان يكنُّ له إعزازا خاصا - دواوين البارودى وابن الرومى والبهاء زهير والشريف الرضى والبحترى، وديوان الحماسة لأبى تمام. أما كتاب الأغانى للأصفهانى فقد كان شوقى - كما يذكر ابنه الأستاذ حسين - يدمن قراءته». ومعروض أيضا في الدار مخطوطات ثمينة بقلم الشاعر عليها تعديلاته الأخيرة قبل نشرها.

وخلال تجوالنا بين الحجرات التى قضى فيها الشاعر أيامه وأنتج فى أثنائها درره الشعرية، كانت حياته تجول فى أذهاننا مع الخطرات آلتى تقدمها لنا مضيفتنا الكريمة عنها. فقد ولد أحمد شوقى عام ١٨٦٩ من أسرة ذات أصول عربية وكردية وتركية ويونانية، ونشأ قريبا من بلاط الخديوى إسماعيل، ذلك الذى كان «آخر من ينثر االذهب فى مصر». وتنقل الشاعر فى طفولته وصباه فى مراحل التعليم المختلفة، من الكتّاب إلى مدرسة المبتديان فالمدرسة التجهيزية. وأتاح له يسر أسرته المادى الالتحاق بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٥ ، وبعد عامين فيها ينتظم فى قسم الترجمة الذى أنشئ حديثا بها؛ وبعد سنتين أخريين فيه يتخرج حاملا إجازة الحقوق والترجمة. ثم أوفده الخديوى توفيق إلى فرنسا للاستزادة من دراسة القانون. وأوصاه بدراسة الآداب والفنون أيضا، والتعرف على الثقافة والآداب الأوروبية بوجه عام. وقد قضى الشاعر فى تلك البعثة الخارجية ثلاثة أعوام زار فيها العديد من المدن الفرنسية، بالإضافة إلى إنجلترا والجزائر التى قصدها للاستشفاء من مرض شديد ألمّ به. وقد تأثر شوقى فى تلك الفترة بما قرأ وشاهد فى فرنسا، خاصة وأن إقامته فيها واكبت عصر «الحقبة الجميلة» فى الفن والأدب هناك فى أواخر القرن التاسع عشر ومشارف القرن العشرين. ولا شك أن شوقى قد استلهم الكثير من

تجديداته الشعرية فى تلك الفترة، وأهمها وضع مسرحيات شعرية لموضوعات تاريخية، مثل تلك التى قرأها لراسين وكورنى وموليير.

وقد بدأ كتابة مسرحية عن على بك الكبير وهو فى فرنسا، إلا أن عدم التشجيع الذى لاقته منعه من إكمالها فى ذلك الوقت. وقرأ شوقى أيضا لفيكتور هو جو ولامارتين ودى موسيه ولافونتين وتأثر بهم فى شعره.

وقد تحدث كثير من النقاد - خاصة الدكتور هيكل - عن الانفصام الذى عانى منه شعر شوقى، ما بين مدائحه للخديوى وعلية القوم فى القسم الأول من حياته، وفترة الانعتاق من أسر السلطة ومسايرة الأحداث الوطنية والشعبية. بيد أن الدكتور شوقى ضيف قد ألقى الضوء على هذه المشكلة فى كتابه «شوقى شاعر العصر الحديث» . حين نفى وجود مثل تلك الازدواجية فى شخصية أمير الشعراء وإنتاجه، وأرجع وجود الاختلاف فى توجهات شعره إلى الصفات الخاصة التى يتميز بها أهل الفن والأدب بصفة عامة، الذين تجتمع فيهم المتناقضات أحياناً من اندفاع وزهد. وجموح وتردد، ونزوع إلى النقد والهجاء تارة وإلى المديح والثناء تارة أخرى؛ ففى رأى الدكتور ضيف أنه «لا خلاف بين الحياتين أو تخالف، وإنما هى فى مجموعها خصال شوقى

وصفاته. وقد أورد الشاعر نفسه بيانا عاما عن حياته فى مقدمة أول طبعة من ديوانه «الشوقيات» الذى صدر عام ١٩٨٩، الذى يمكن اعتباره سيرة ذاتية موجزة للشاعر حتى ذلك الوقت، نعرف منها بدايات قوله الشعر، وعلاقاته بحكام مصر فى تلك الفترة، وأساتذته الذين تعلم منهم وتعلموا منه، ولمحة عن حياته فى البعثة الخارجية.

ومع عودة الشاعر إلى الوطن، تم تعيينه فى قلم الترجمة بقصر الخديوى عباس الثانى. ولم يقتصر نشاط شوقى فى تلك الفترة على مدح الخديوى بحكم منصبه وقربه منه، بل تعددت موضوعات قصائده، كقصيدته عن مأساة دنشواى، ورثاء مصطفى كامل، والهلال الأحمر، وحريق ميت غمر، وغير ذلك كثير، ومن أبرز منجزات الشاعر القصيدة التى ألقاها فى المؤتمر الشرقى الدولى الذى انعقد فى جنيف فى سبتمبر ١٨٩٤ - وحضره مندوبا عن الحكومة المصرية - وعنوانها «كبار الحوادث فى وادى النل» ومطلعها المشهور: «همت الفلك واحتواها الماء* وحداها بمن تقل الرجاء». وهذه القصيدة فى رأيى من عيون شعر شوقى، التى قام بعد ذلك بتناول موضوعاتها فى قصائد ومسرحيات أخرى، ولا أدل على أهمية شوقى فى الحياة السياسية ووزنه الثقافى فى بلده من أن الإنجليز قد فطنوا إلى خطورة أثره وقوة شعره إذا هم

تركوه فى مصر بعد عزل الخديوى عباس الثانى وتولية حسين كامل سلطانا على البلاد، فقرروا نفيه إلى إسبانيا التى اختارها للأواصر التى تربط تلك البلاد بنفس كل عربى. وقضى الشاعر زهاء خمس سنوات فى المنفى، بين مدينة برشلونة أساسا. ومدن إسبانيا الأخرى بعد انتهاء الحرب. خاصة مقاطعات الأندلس التى تركت فى نفسه أثرا عميقا بآثارها الإسلامية والعربية الزاخرة. واستوحى وهو هناك موضوعات أندلسية فى عدد من أشهر وأحلى قصائده، بالإضافة إلى مسرحية «أميرة الأندلس».

ثم يعود شوقى عام ١٩١٩ إلى وطنه، الذى لاقاه بعد يأس فكأنه قد لقى به الشبابا، ليجد الأحوال السياسية والاجتماعية وقد تغيرت عما كانت عليه، ولم تعد له تلك المكانة الوثيقة لدى الحكام الجدد. وإن ظل على صلة بهم، ووجد البلاد والشعب فى فورة المطالبة بالاستقلال والحقوق السياسية. وقد شارك شوقى نبضات الشعب وتطلعاته بصورة أكبر، وبدأ تلك المشاركة فى أول قصيدة ألقاها فى القاهرة بعد عودته من المنفى. حيث ضمنها سطورا عن المصاعب التى يجدها الناس فى الحصول على المواد الغذائية فى ذلك الوقت. وعمد وقد وهنت علاقته بالقصر إلى مغادرة حى المطرية والانتقال إلى الجيزة حيث ابتنى كرمة ابن هانئ مرة أخرى على الضفة الغربية من النيل، وأعد دارا أخرى له

بالإسكندرية سماها «درة الغواص» استلهاما للبحر الأبيض المتوسط الذى كان يهيم به وكتب عنه فى شعره. وذاعت شهرة شوقى فى طول البلاد العربية وعرضه، حتى إذا أصدر طبعة جديدة من الشوقيات عام ١٩٢٧، أقيمت له الاحتفالات فى كل مكان ، وتوافد المندوبون من كل حدب وصوب لمبايعته أميرا للشعراء، الأمر الذى تركز فى ذلك البيت الشهير الذى وجهه له حافظ إبراهيم: «أمير القوافى قد أتيت مبايعا* وهذى وفود الشرق قد بايعت معى» وقد أثرى الشاعر التراث العربى الحديث بعدد من المسرحيات الشعرية استمدها من التراث العربى والمصرى، بالإضافة إلى موضوعَين حديثين هما «البخيلة» و«الست هدى».

وعاش أحمد شوقى حياة الفنان الخالصة الهنية، مستجيبا لربة الشعر حينما وكيفما وحيثما دعته، متنقلا بين الأماكن والمدن التى أحبها، فى صحبة أصدقائه وخلانه، حتى لقى وجه ربه الكريم فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٢. وقد صدرت كتب كثيرة عن الشاعر، ومنها ما تعلق بحياته ونوادره مثل كتاب «اثنى عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء» لأحمد أبو العز سكرتير شوقى، وكتاب «أبى شوقى» ونظرا لعدم توافر هذين الكتابين فى الأسواق، فقد اطلعت على لمحات منهما فى مقالين للأستاذ رجاء النقاش عن شوقى ضمهما كتابه «ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء».

ترددت هذه الحياة الثرية فى ذهنينا ونحن نهبط مع مضيفتنا إلى الدور الأول من الكرمة، حيث شرحت لنا أن حجراته كانت مخصصة للاستقبال والزيارات التى كان يتلقاها الشاعر من أصدقائه ومن كثير من وجوه المجتمع والساسة المشهورين. وشاهدنا الغرفة التى خصصها الشاعر لمحمد عبدالوهاب فى هذا الدور الأرضى، وأطلق عليها اسم «عش البلبل» وقد ارتبط عبدالوهاب بأمير الشعراء برباط وثيق من الصداقة والرعاية التى كان الموسيقار يتلقاها من الشاعر، حيث كان يصاحبه فى حله وترحاله، وجال معه فى فرنسا ولبنان. وفى المقابل، نهل محمد عبدالوهاب من شاعرية شوقى ومؤلفاته، فأحال بعضها إلى درر غنائية من أروع ما تضمه الأغنية العربية. وقد لحن الموسيقار من تأليف الشاعر ما مجموعة ٣٢ عملا، ظهر منها ٢٢ إبان حياة شوقى. وقد تنوعت تلك الأعمال بين القصائد والأدوار والطقاطيق والمواويل. ومن أبرزها القصائد المأخوذة من مسرحية مجنون ليلى، ويا جارة الوادى، والنيل نجاشى، وبلبل جيران. ومعظم هذه الأغانى موجود ونستمتع به لحسن الحظ، وإن كان البعض الآخر غير متوافر حتى الآن، والأمل معقود على ظهوره فى يوم من الأيام بعد أن ظهرت فى الأعوام الأخيرة أغان لم نكن نسمع بها من قبل، منها «دار البشاير» التى غناها عبدالوهاب فى حفل

زفاف ابن الشاعر فى كرمة ابن هانئ عام ١٩٢٤ . وكانت مفاجأة لنا أن من بين القصائد التى لحنها عبدالوهاب للشاعر قصيدته المشهورة عن شكسبير ومطلعها «أعلى الممالك ما كرسيه الماء» وهى من الأعمال التى نتوق إلى العثور عليها لنرى كيف طوعها الموسيقار للغناء بموهبته الفذة.

وخرجت وصديقى من هذا المتحف الرائع ونحن نتمنى دعاية أكثر له فى أوساط الشباب من الطلبة الذين لابد ويدرسون أحمد شوقى فى مرحلة من مراحل تعليمهم، وما يمكن للمدارس والكليات من تنظيم زيارات لهم إلى هذا المتحف للاستفادة من المعلومات المتاحة فيه عن الشاعر وإنتاجه. وحبذا أيضا لو زودت الكرمة بتسجيلات كاملة للأغانى التى وضعت من تأليف الشاعر، والكتب التى صدرت عنه، بحيث يتاح للباحثين كل ما يحتاجون معرفته عن أمير الشعراء فى عقر داره.

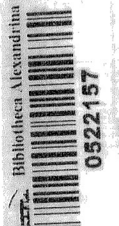
المحتويات



إن القراءة كانت ولا تزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك





Bibliotheca Alexandrina
0522157

الثمن ٢٠٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية